الليبرالية والقضية النسوية في السودان

عادل عبد العاطي

الفهرس

الفهرس 1

الإهداء 3

مقدمة 4

الجزء الأول : 8

الليبرالية والقضية النسوية 8

حول دراسة الاستاذة إيمان عبد الجليل 9

(حقوق المرأة الكانت ضايعة) 9

نحو قانون مدني موحد للاحوال الشخصية في السودان 11

مرة أُخري نحو قانون مدني موحد للاحوال الشخصية في السودان 18

لماذا يرفض الليبراليون السودانيون تعدد الزوجات والطلاق الاعتباطي؟ 24

الحزب الليبرالي السوداني حزب الشباب والنساء 27

النسوية الليبرالية 28

الجزء الثاني : 32

محاورات ومقاربات 32

ينبغي ان نأكل كل اصنامنا المقدسة 33

التحالف النسوى السودانى 41

قراءة فى حصيلة 6 سنوات من النشاط 41

تجمع الميرغني وقرنق والتجاني الطيب أعدى اعداء المراة السودانية* 50

الثورة النسوية في السودان 62

إنها ثورة الحقوق: النظام العام والهندسة الاجتماعية وبيت الفنون 68

هدية النظام في 8 مارس لنساء السودان: القتل !! 72

الجزء الثالث: 74

شخصيات ومواقف 74

نور تاور : جبل الماس في مفازة الناس 75

وداعا ميريام ماكبا – وداعا يا ام افريقيا 78

معلومة بنت الميداح : ثورة في الغناء والسياسة..... 80

فاطمة بنت البري 84

او ليليث الثانية في الذهن الذكوري "الصوفي"..... 84

نهلة بشير رمز الوطن الأسير..... 93

الإهداء

الى نورة عبد الله ادريس

بما علمتني وما منحتني من حياة وحب.

مدخل

هذه مجموعة من المقالات كتبتها خلال السنوات الفائتة تتحدث عن أحوال نساء السودان وعن البديل الليبرالي الذي لا يزال في طور التبرعم. أعدت تجميعها وفقا لترتيبها الزمني في الاحتفال بيوم المرأة العالمي هذا العام. أتمنى أن تكون فاتحة لنقاش اوسع عن وضع المرأة السودانية والمجتمع السوداني في هذه الفترة الحرجة من تاريخه.

قسمت المقالات الى ثلاثة أقسام الرئيسية. كان الجزء الأول منها ما صنفته يرتبط بعلاقة الليبرالية بقضايا المرأة السودانية؛ وأطروحات الليبراليين السودانيين في هذا المجال؛ والحاجة الى حركة نسوية ليبرالية أعتقد أنه قد أزف الوقت لقيامها. أما الجزء الثاني فقد خصصته لحوارات ونقاشات حول قضايا الحركة النسوية في السودان وسرد لتجارب تاريخية. أما الجزء الثالث والأخير فقد كرسته للمقالات والكتابات القصيرة التي كتبتها عن شخصيات نسوية تاريخية ومعاصرة؛ سودانية وعالمية. ذلك ان الليبرالية إنما تدور في الأساس حول الإنسان بما هو كائن؛ وليست نقاشا نظريا لا ينعكس على الواقع.

كنت ايضا قد قمتُ بكتابة بعض الاطروحات البرامجية او النظرية لصالح الحزب الليبرالي تتعلق بقضايا المرأة والنوع، لم أشاء أن اذكرها هنا. كما غابت عن الكتيب بعض المقالات عن شخصيات نسوية لا تتوفر معي الآن؛ ومن بينها مقال عن "ستنا" ملكة شندي؛ ومقال عن الكنداكات السودانيات. أتمنى إضافتها في أي طبعة قادمة.

أيضا قمت بحذف بعذ المقالات التي اناقش فيها بعض قضايا المرأة والأسرة والزواج وعلاقتها بالدين؛ ونقاش في الطرح التراثي في هذا الأمر. وقد قررت بعض تمحص أن أدرجها في كتابي عن "الليبرالية والدين"؛ فليرجع لها من يريد هناك.

عادل عبد العاطي

8 مارس 2016

مقدمة الدكتور إبراهيم النجيب

الليبرالية النسوية: قراءة فى كتاب عادل عبد العاطي

لقد شرفني الاستاذ عادل عبد العاطي بكتابة مقدمة كتابه (الليبرالية والقضية النسوية في السودان)، وهو كتاب كنت قد أعددت قراءة فيه في أول نشرة كنسخة الكترونية، وهآنذا أدخل الكتاب نفسه مقدما له فإلى ساحات الكتاب.

قدم لنا الأستاذ عادل كتابه المعنون للحركة النسوية السودانية، بما يشبه مرافعة نسوية ضخمة، وإنتصارا لقضية النسوية السودانية. وقد قسمه الى ثلاث فصول، أولها الليبرالية والقضايا النسوية والثاني مجموعة نقاشات خاضها فى ضمن سياق النسوية نفسه على منابر متعددة وختمها بكتابات عن شخصيات نسوية ساهمت فى صنع التاريخ للحركة النسوية محليا وعالمياً.

كتاب عادل هو تجميع لمجموعة مقالات ظل يكتبها على الأسافير وفى أضابير وأروقة السياسة، أظن -كما كل مره- لم يعدل فى المقالات ولم يسحب رأيا قد يكون تجاوزه بالخبره أو حتى يعدل لغة يظنها تخطئ هدفها عند المفسرين. بل التزاما بالإطار الزمني لها ونصحا ودرسا حتى؛ للتاريخ والمعرفة وإستصحابا لتطورهما والقارئ لكتبات عادل عبدالعاطي لايمكنه تجاهل تمكن الرجل من اللغة وتطويعها لصالح إيصال فكرته ومغزاه، يعاملها معاملة عامل الذهب الماهر، ويداعبها مداعبة الأب لطفلته الصغيرة بحنو وعاطفة وقصد للتعليم ونقل للخبرات ظاهر بين السطور.

وكتابات الأستاذ عادل وكتبه هي نقلة جديدة في عالم الكتابة والإستيثاق، مبتعدة عن التقليد القديم فى افناء الكاتب لعمره في الكتابة نفسها لينتجها ثم يمشي دهرا قبل أن يلتفت اليها وتدرس وتكون بداية بعيدة عن الواقع وتطبيقاته، والذي يتناول الواقع يتناوله بعد زمن سحيق ليبدو كدراسة للتاريخ أكثر من كونة ضمن عملية التثاقف والبناء والهدم المستمرين لمنظومة الوعي. كتابات عادل هي كتابات حية كتبها خلال وبعد أحداث وردا على كتاب اخرين على المواقع الاسفيرية ومقدما رؤيتة فيها في حينها إحقاقا للحق وبيانا للتاريخ، مما يجعلها غير بعيدة وغير متمسكة ببوابة المتأمل البعيد المشاهد، بل المشارك الحي الفعال والخلاق في أرضه وفكره.

يمكنني أن أمر هنا فى عجالة ماسحا على الكتاب وملاحظاتي عنه:

أهم مواد الفصل الاول هو نص لإعلان المبادئ الذي شارك أ. عادل فى تحريره بل كان محرره الرئيسي وعنون ب (نحو قانون مدني موحد للاحوال الشخصية) في العام 2005. وبرغم ماوجده الاعلان من إنتقادات بسيطة عليه، فهو يعتبر مجاهرة هى الأولى من نوعها فى الاقليم للتأسيس لقانون مدني وموحد للأحوال الشخصية من خارج ثوب الأديان ومن صلب العلوم والمعارف الإنسانية وتطورها، ذلك إن كل المحاولات الجادة فى هذا السياق (القانون) يمكننا أن نستقرأها

من ناقدي التراث الديني أو المفكرين الدينين فى مقاربات تنبني على خطابات التأسيس من داخل الدين عبر ممارسة نقد التراث الديني و (خصوصا الإسلامي).

يجب إحترام هذه الشجاعة أولاً، لكني اعيب عليه (الإعلان) قصده لنقاط هي مفهومة بالضرورة ضمن سياقات التعريف فى مشروع القانون (مثال نص الزواج خارج الدين) كشرط فى حين أن تعريفات القانون تشترط شروط الزواج وتحددها بصورة لاتحمل فى طياتها نصا أو تلميحا أو مايمكن تفسيره بأنه شرط الزواج داخل الدين، وكان يمكن الإكتفاء بشروط موافقة ورغبة الطرفين وعمريهما ومنع التعدد.. هنا يمكنني ان أقول إن محرري الاعلان ركزوا على عدوهم وتصورهم لخصمهم بصورة غير ضرورية للإعلان. للتاريخ فإن الاحزاب التقدمية ونشطائها ابتعدوا عن هذا الإعلان بسبب محرريه وليس بسبب المضمون، وبسبب المحررين خاضوا حروبا ضد الإعلان وفكرته التى هي فكرتهم، مما لم يعطه ذلك الإهتمام المستحق، وهو المشروع الأول كما قلنا في السودان الذي ينحو الى تأسيس قانون مدني يتبني مواثيق حقوق الإنسان وسيداو ولا يؤسس لنفسه على رفات الأديان.

ثم نقرأ فى مرافعة أخري للأستاذ عادل ومجموعة ضخمة من الليبرالين رفضهم لتعدد الزواج الذي شرعن داخل منظومة القوانين الحالية، والتقاليد السودانية البالية، وقدم الكاتب دفوعات وشروحات كافية لإستيثاق وجهة النظر هذه. ثم ختم الباب الأول بمقال النسوية الليبرالية وهو نفسه عنوان الكتاب بما يحمل مدلولات داخل المقال وخارجه، ويمكنني لكي أبدع فى وصف ذلك للقارئ أن افعل شيئا واحدا وهو دعوة القارئ للحصول على الكتاب والإطلاع عليه.

مقال (يجب ان نأكل أصنامنا) من الباب الثاني هو نص لإستيثاق التاريخ وعرض مباشر للحدث فى وقته، فوق مايحمله من نقد لأفعال قادة الحركة النسوية وقتها فإنه أيضا يعكس المسئولية التاريخية التي يمكن أن يستخلصها القارئ، ويشكل إضافة مهمة ودراسة عميقة لحال الحركة النسوية السودانية وخطابها في حقبة مابعد الإستعمار وهو الخطاب الذي أقعد النسوية السودانية رغم (تصنيم) قادتها وكيل المديح لهم، فإن نفس تلك الأصنام التى يتم التصفيق لها هي نفسها السبب أيضا في ركود الحركة وبقاءها في الأسفل.

ويمكن أن نقول إن قائدات الحركة النسوية تعاملن مع القضية النسوية بفكر ذكوري بحت أيام التجمع الوطني الديمقراطي، "وهنا نستشهد بهذا الكتاب" حيث هذا ما يمكن قرائته في تقرير مؤتمر التجمع الوطني الثاني في مقال لاحق وفي نص التقرير.

ثم عرج الكاتب لدراسة حصيلة 6 اعوام علي انشاء التحالف النسوي السوداني وهو حركة نسوية شابة تشكلت و تحالفت مع التحالف السوداني السياسي/العسكري في 1995 ، والأستاذ حينها ناشط أساسي ومحوري في التحالف وحراكه الفكري والنسوي، ورغم ذلك نجد الدراسة تتسم بصرامة العلم والمعرفة بعيدة عن العاطفة والميول والتمجيد الأعمى لأجل الإنتماء، مايجعلنا نستشف صورة عن الأستاذ للذين لايعرفون الرجل، وتلك اللمحة المضيئة فى تاريخ الحراك النسوي السوداني (التحالف النسوي) كان يمكن ان تطور لتبلغ اشدها وتؤتي أكلها ، لكنها ضعفت لأسباب عديدة تطرق لها الكاتب وطرح حلولها ، كما شكلت بفعلها وحراكها نبراسا مضيئا تستلهم منه العبر في سبيل بناء حركة نسوية قوية في السودان.

ثم ننتقل عبر التاريخ حيث يتطرق الكاتب الى ممارسات نظام المؤتمر الوطني في التضييق على القضية النسوية وقضية الحريات بشكل عام يوم ان شن النظام حملتة لإغلاق المراكز الثقافية والبحثية التى لاتخضع لسلطانه ولاتنفذ فكرخالظلامي في عام 2010 فى نكسة أصابت المعرفة أولا والثقافة والفنون وقضية المرأة بشكل مباشر.

ويضعنا الأستاذ أخيرا في تذكر للتاريخ وتخليد لذاكرة الشهداء بتطرقه لحادثة اغتيال الشهيدة عوضية من شرطة النظام، ولم تكن الحادثة الا تمظهرا عنيفا لفكرة التقليل من شأن المرأة التي يعمق لها النظام وقانون النظام العام الذي يعمل به النظام الي إهانة المرأة والمختلفين مع النظام وفكرة والرافضين لجبروته.

في الفصل الاخير نقرأ مقالات معنونة بأسماء نساء سودانيات وغير سودانيات شكلن جزء من تاريخ المنطقة والعالم وشاركن بفعالية وقوة في الحياة العامة. والفصل كله عبارة عن إحتفاء بالنساء قبل أن يكون عن صاحبات العنوان، فنجده يفتتحه بمقال عن الأستاذة نور تور السياسية الليبرالية والناشطة فى قضايا جبال النوبة والعلم الذي لاتخطئة العين، وأظن الاستاذة نور والكتابة عنها كانت احتفالا للإفتتاح أكثر من أنها مناسبة للكتابة عنها وهي إمرأة يجب ان تكتب عنها الكتب وتسمي الشوارع بإسمها ويستشهد بها في تاريخ المنطقة الحالي (غير المكتوب الى الآن والمنسي تحت رماد الحرب).

تضمن الفصل ايضا كتابات عن مريام مآكبا الفنانة والمناضلة الجنوب افريقية الأصل الشهيرة، وعن معلومة بنت الميداح وهي ايضا فنانة موريتانية شهيرة، كلا المرأتين زاوجتا الفن والإبداع بالقضية والدفاع عنها وشكلتا ملمحا قويا للحراك النسوي الحديث بأفريقيا، في قارة لاتزال مليئة بالجهل ومرض اضطهاد النساء .تعرض الكتاب الي بحث محكم عن الحكيمة فاطنة بنت المري، وهو إبحار في ميثولوجيا الصوفية، وعرض مشوق لمجموعة الآراء التاريخية المتناقضة حينا حولها مما يضعنا أمام صورة تتضح خطوطها بهذا المقال، وتجعلنا نحترم هذه المرأة التي عانى تاريخها من الفكر الذكوري ومآلاته حتى عند الصوفية الأكثر تسامحا.

واختتم الكتاب بمقال أيام اعتقال الاستاذة نهلة بشير عنها، وهو إنتصار لفكرها ولحريتها وعرض لتاريخ النظام غير الموثق الي الآن. ونهلة بشير اعتقلت أيام شراكة المؤتمر الوطني والحركة الشعبية وحفنة من الأحزاب السياسية المعارضة في تاريخنا الحديث، واعتقال نهلة فضح إنتقائية السياسيين المشاركين حينها وبحلق في وجه صمتهم وقتها ولايزال، وأوضح بجلاء عدم مبدئيتهم. وبالرغم من أن المقال كما اسلفت كان انتصارا لنهلة أكثر من كونة عرض لإخفاقات دعاة الحرية لكنه عرض لتاريخ مهم ويجب أن يوثق شأنه شأن كل الإعتقالات وسلب الحريات الذي ظل يمارسة النظام بدرجات متفاوتة من العنف منذ مجيئه الي السلطة على حافة الطلقة وظهر الدبابة.

إبراهيم النجيب

رئيس الحزب الليبرالي.

الجزء الأول:

الليبرالية والقضية النسوية

حول دراسة الاستاذة إيمان عبد الجليل[1]
(حقوق المرأة الكانت ضايعة)

التحية موصولة لك ولكل اسهاماتك القيمة، والتى تشكل لنا زادا، رغم ضعف المساهمة من الكثيرين للحوار حولها.

حول موضوع دراستك: اعتقد انها لبنة جيدة تصلح لدراسة واقع الحركة النسوية، وان كانت لى عليها بعض الملاحظات:

1- تجاهلت دور الحركة النسوية الناشئة من النساء السودانيات فى المناطق المهمشة، واقصد هنا فيدرالية نساء السودان الجديد، كما اقصد منظمة نوب، والقسم النسوى فى الحزب القومى السودانى.

2- لم يتم التطرق لتجربة رائدة لبناء مجموعة فكرية نسوية فى القاهرة فى اوائل التسعينات، وهي مجموعة فجر، Feminst Group for reconstruction of Sudan, وهي مجموعة ضمت بين اعضائها نساءا ورجالا من شمال الوطن وجنوبه،

3- تاسست فى 1995 منظمة نسائية أؤمن بانها، فى إطار البرامج على الاقل والتوجه النظرى، حققت طفرة نوعية فى مجال الحركة النسوية، وهى التحالف النسوى السودانى بقيادة سارة كليتو ريال وندى مصطفى على، وقد افردت لعام مضى مقالا فى تحليل تجربة التحالف النسوى يمكن ان ارسله لك او اعيد نشره هنا.

4- أؤمن على ملاحظة الاستاذة اشراقة مصطفى، حول انخراط النساء فى نشاط الجمعيات المدنية، كما اشير الى قيام مركز دراسات المراة والنوع، والذي قام النظام باغلاقه واعتقال العاملات فيه لعامين مضيا، كما ألفت الانتباه الوجود الكبير للنساء فى العمل الصحفى فى السودان

5- ضرورى هنا تسجيل صوت انتقاد وادانة، للتجمع الوطنى الديمقراطى، والذي عبر 13 عاما من تاريخه، فشل فى تمثيل المراة السودانية فى مؤسساته، وتامر على الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم، ولا يزال يتمسك بصيغ بالية كالمادة 5 من ميثاق التجمع، والتى تشرط حقوق المراة بما يزعمون من قيم وعادات سودانية واسلامية.

6-هناك دراسات جيدة عن الحركة النسوية، يا حبذا لو تم تجميعها ونشرها، او فى مرحلة اولى ارشفتها، واشير هنا الى دراسات البروفسور سوندرا هول، دراسات الاستاذة سارة كليتو، دراسات الاستاذة فاطمة أحمد ابراهيم، دراسات الاستاذة ندى مصطفى، الخ الخ

7-استقلالية الحركة النسوية عن الاحزاب الرجولية ضرورة ماسة، كما هى ضرورة الضغط على الاحزاب لتمثيل الحركة النسوية فى مؤسساتها تمثيلا حقيقيا لا شكليا، ونقل ذلك الى كل مؤسسات المجتمع المدنى والموسسات السياسية والتفيذية.

[1] مشاركة في النقاش في موقع سودانيز أونلاين حول دراسة الاستاذة إيمان عبد الجليل الجندرية عن الحركة النسوية.

8-يحتاج الى الاشارة هنا، استباقا لما طرحتيه من ضرورة توثيق انتهاك حقوق المراة فى عهد النظام الراهن، ان النظام بوصفه نظاما فاشيا، قد أفلح فى تجييش الكثير من النساء ضمن إطار تنظيمه وايدولوجيته الظلامية، الامر الذي يوضح الطابع المتناقض له من كونه يعتمد على ايدولوجية معادية للنساء، ويعتمد عليهم فى نفس الوقت فى آلته السياسية والدعائية.

9-تحتاج قضية الإطار الفكرى للحركة النسوية الجديدة الى حوار كامل، كانت قد ابتدرته الاستاذة سعاد ابراهيم احمد سابقا، ولكنه قد خرج الان عن الحدود الضيقة التى يدور فيها الاتحاد النسائى ومجموعة لندن.

10- فى ظنى أن هناك ضرورة قصوى لتاسيس خطاب نسوى جديد، لا اصلاحى ولا ايدولوجى، يعتمد على مفاهيم تشبيك وتمكين قدرات المراة السودانية، وقبل كل شى تقوية قدراتها الاقتصادية والتنظيمية، ويخاطب المراة العاملة والمهمشة والمراة الشابة ضمن إطار عام للنهضة الوطنية المرتقبة.

2002/2/28

نحو قانون مدني موحد للاحوال الشخصية في السودان[2]
(إعلان مبادئ مشترك)

مقدمة:

ان الموقعين والموقعات ادناه، اذ ينشروا هذا الإعلان المشترك، فهم/ن انما يعبروا عن رفضهم/ن القاطع للحيف الممارس علي المراة السودانية والاسرة عموما، في ظل قانون الاحوال الشخصية لعام 1991، وغيره من القوانين التي تحكم قضايا الاحوال الشخصية والاسرة في السودان، وعن احساسهم/ن بالاخطار والسلبيات الاجتماعية الخطيرة التي تحتوي عليها القوانين المنظمة لقضايا الاحوال الشخصية، وعن سعيهم/ن الجاد للعمل من اجازة قانون مدني ديمقرلطي موحد للاحوال الشخصية في السودان، يحمي حقوق النساء والرجال، ويكفل مساواتهم امام القانون، ويكفل استقرار الاسرة ومصلحة الاطفال، ويفتح الباب تجاه اعادة تاسيس مجتمع عصري سليم، قائم علي مبدأ المساواة والكرامة والحقوق والواجبات المشتركة، في اصغر واهم خلاياه الاجتماعية، وهي الاسرة السودانية.

لماذا قانون موحد للاحوال الشخصية في السودان؟

ياتي واجب تشريع قانون موحد للاحوال الشخصية في السودان، من ضرورة سيادة المبدأ الدستوري بتساوي جميع المواطنين امام القانون، حيث لا يمكن ان يتم مبدأ المساواة الدستورية، والمواطنون يخضعون لقوانين متعددة في مسالة من اهم مسائل الاجتماع البشري، وهي قوانين الاسرة والاحوال الشخصية.

لقد قام التشريع السوداني علي التقسيم بين المواطنين بسبب دينهم، فكانت هناك قوانين واعراف للاحوال الشخصية للمسلمين وقوانين واعراف لغير المسلمين، وإذا كان قانون الاحوال الشخصية عموما لم يجد الصياغة القانونية المكتملة والموحدة الي اليوم، فان حالة الانقسام القانوني قد تكرست بصدور قانون الاحوال الشخصية للمسلمين في عام 1991، وسريان اللوائح والقوانين السابقة على غير المسلمين، في استمرار لذلك التقسيم القديم، المبني علي اساس الانتماء الديني للمواطنين.

ان اي قوانين تميز بين المواطنين على اساس الدين او الثقافة، انما تهدد القاعدة الدستورية بمساواة المواطنين امام القانون، ولا يمكن القبول بها في الدولة الديمقراطية والمدنية الحديثة، ولذلك لا مناص من توحيد قانون الاحوال الشخصية، وشمولية سريانه على كل المواطنين على حد السواء، إذا ما أردنا ان نبني الوحدة الوطنية ونضمن تساوي المواطنين امام القانون.

[2] مشروع مبادئ تم نشره في مارس 2005 كنت أحد الموقعين عليه والمحرر الرئيسي له.

لماذا يعتمد القانون على المبادئ المدنية وليس الدينية:

القانون الذي نقترحه، يقوم على المبادئ المدنية للاجتماع الانساني، وهي مبادئ واحدة تنبع من وحدة الجنس الانساني ومن عالمية قواعد العدالة، وهي في الوقت الذي لا تستند فيه على احكام دين بعينه، فانها تستصحب التجارب الايجابية التي تحتوي عليها كل الثقافات والحضارات والاديان، والتي اصبحت بمثابة قيم عالمية تواضع عليها بني الانسان في عالم اليوم.

ان واقع التعدد الثقافي والديني في السودان، تفترض ان تقوم القوانين على اساس مدني، فضلا عن ان تطور القوانين قد ثبت طابعها المدني المضطرد، اضافة الي وجود الخلافات المذهبية الكثيرة، وعدم الوضوح والتناقضات، والجمود النظري والصياغات المتاخرة عن روح العصر، والتي تسود في مختلف الاجتهادات التي تنسب نفسها للدين، في مجال قوانين الاحوال الشخصية والاسرة.

ان فشل العديد من دعاة الطروحات الدينية في تطوير منهج الاحوال الشخصية من خلال اعادة قراءة جديدة للنصوص والاحكام الدينية، تراعي الي تاريخية النصوص وظلرفية الاحكام، وسيطرة العقليات التقليدية التي تود قهر حقوق المراة والاسرة باسم الدين، والتي يعد قانون الاحوال الشخصية للمسلمين لعام 1991 اسؤا تمثيل لها، انما تفتح الباب واسعا امام الاجتهادات المدنية التي تقوم علي مكتسبات الحضارة الحديثة والقيم العالمية الانسانية ومعاهدات حقوق الانسان، وتدعمها في ذلك مختلف الاطراف والاجتهادات المستنيرة القادمة من المؤسسات الدينية التقدمية المختلفة، والتي تلتزم بمساواة المواطنين امام القانون، وقيام الدولة علي مبدأ المواطنة، وفصل الدين عن السياسة .

سبل النضال من اجل هذا القانون:

انا ندعو الي تبني هذا القانون من قبل التنظيمات النسوية السودانية والناشطات النسويات، وناشطي وناشطات حقوق الانسان ومنظماتهم، والمثقفين والمثقفات الديمقراطيين والديمقراطيات، وكذلك ندعو الاحزاب الديمقراطية والليبرالية والتقدمية، الي تبني فكرة هذا القانون ومشروعه. كما ندعو الي قيام لجنة تسيير مشتركة واسعة، تمثل فيها كل هذه العناصر والتيارات، تقوم بتأطير الجهد القانوني والدعائي والتنظيمي المصاحب لاعداد القانون والنضال من اجل اجازته ، وتنظيم حملة شعبية واسعة للدعوة لفكرة ومشروع القانون والتعريف به والحشد له، ، وتعمل في مثابرة حتي يتم اجازة قانون مدني موحد للاحوال الشخصية والاسرة في السودان.

الاسس والمبادئ التي يبني عليها القانون:

1. العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية.
2. اتفاقية سيداو لمنع كافة اشكال التمييز ضد المراة.

3. الاجتهادات القانونية العالمية والاقليمية في مجالات قانون الاسرة والاحوال الشحصية، ومن بينها القانون التونسي لعام 1956 والمعدل في 1999، والقانون المغربي الجديد لعام 2004، وقوانين دولة جنوب افريقيا المتعلقة بمساواة المراة وحقوق الطفل، وغيرها.

4. التراث القانوني السوداني المستنير، في مجال قوانين الاسرة والاحوال الشخصية، ما لم يتناقض مع العهود والاتفاقات الدولية المشار اليها اعلاه.

خطوط اساسية في اتجاه صياغة القانون:

نقدم هنا بعض الخطوط الاساسية والاتجاهات، والتي ينبغي ان تنبني حولها وعليها اي صياغة تفصيلية لمواد القانون، والا تتناقض معها:

صياغة القانون وجهات تنفيذه:

- يصاغ قانون يسمي بقانون الاحوال الشخصية والاسرة يكون شاملا لكل قضايا الاحوال الشخصية والاسرة وشاملا وموحدا تجاه كل المواطنين.
- يسري القانون على كل قضايا الاحوال الشخصية منذ لحظة اجازته، ولا يلغي العقود المجازة قبل سريانه.
- تصاغ مذكرة اضافية للقانون لتنظيم العقود التي قامت قبل سريانه، والتي تتناقض مع روحه، بما يحفظ شرعية العقود، وبما يؤمن العدالة ويلتزم بروح هذا القانون.
- تقوم مؤسسة خاصة في كل مدينة ومنطقة ادارية، لتسجيل سجلات وتحرير عقود الاحوال الشخصية والاسرة، تكون مسؤولة عن اجراء العقود المجازة حسب القانون.
- تقام محكمة خاصة تسمي بمحكمة الاحوال الشخصية والاسرة، تك-ون مسؤولة عن الحسم في القضايا والخلافات المسارة وفقا للقانون.
- يتم تاهيل قانوني اضافي لقضاة المحكمة، بما ينسجم مع روح القانون والمعاهدات الدولية، ويراعي ان تكون نسبة القضاة الرجال الي النساء في هذه المحكمة متساوية.
- تخضع المحكمة الي وزارة العدل، وفق القانون والاجراءات المرعية.
- تقوم كذلك وزارة لشؤون الاسرة والمساواة بين الجنسين، تكون مهمتها تطوير القوانين والرقابة علي الوضع الفعلي لتطبيقها

الاسرة:

- الاسرة هي الخلية الاساسية في المجتمع، وعلى القانون حمايتها.
- تتكون الاسرة من الزوج والزوجة، المتزوجين بناءا علي عقد رسمي موثق من المحكمة المختصة.
- الاطفال المولودين في الاسرة او المتبنيين من قبلها او المولودين من أحد اطرافها قبل العقد، هم جزء من الاسرة ولهم حقوقهم المشروعة.
- تعتبر اسرة ايضا، تلك الاسرة المكونة من أحد الابوين والاطفال، وذلك بعد وفاة أحد الابوين او الطلاق.
- تماسك الاسرة واستقرارها وضمان مصالحها هو هدف رئيسي للمجتمع والقانون، شرط الا يتناقض ذلك مع حقوق اطرافها الشخصية والمدنية كمواطنين وبشر.

الزواج تعريفه وشروطه وموانعه:

- الزواج هو اتفاق رضائي بين رجل وامراة بالغين يهدف الي بناء اسرة مشتركة.
- لكي يكون الزواج قانونيا فينبغي ان يتم بحضور الطرفين وشاهدين وان يتم تسجيله عند الجهة المختصة في عقد رسمي لهذا الغرض.
- الحد الادني لعمر الراغبين في الزواج هو 18 عاما مكتملة في لحظة توقيع العقد.
- يجوز للقاضي المختص السماح في ظل ظروف طارئة بزواج من هم دون تلك السن، دون ان يقل عمرهم مع ذلك عن ال16 عاما، علي ان يكون هذا مشفوعا بطلبهم وموافقتهم، وان يتم اخطار اولياء امرهم.
- يجب ضمان عدم تعرض أي من الرجل والمرأة إلى الضغط والتدخل الخارجي بهدف تزويجهم، ويعتبر اي عقد زواج مورس فيه الاكراه او الضغط لاغيا، ويعاقب القانون الاطراف التي مارست الضغط، بما فيها دفع تعويضات للطرف المتضرر.
- يمنع ممارسة الزواج في الاسرة بين الافرع والاصول مهما كان علوها وانخفاضها.
- لا يمنع اختلاف الدين من عقد الزواج.
- يمنع قانونا تعدد الزوجات والازواج، ولا يسمح بعقد اي عقد زواج إذا كان أحد طرفيه متزوج من قبل، واذا اتضح ان احد الطرفين قد كان متزوجا من قبل يعتبر العقد لاغيا، ويعاقب القانون الطرف الذي مارس جريمة التعددية او اخفي المعلومات عن زواجه السابق، بما فيها دفع تعويضات للطرف المتضرر

الحقوق والواجبات في الاسرة:

- الرجل والمراة متساويان في الحقوق والواجبات داخل الاسرة.
- ادارة شؤون الاسرة تعد واجباً مشتركاً يقع على عاتق الطرفين.
- تشترك المرأة والرجل في الانفاق على الاسرة مما يتحصلوا عليه من دخول، ولا يجوز التحلل من هذا الواجب في حالة عمل اي منهما.
- يعد العمل المنزلي جزءا من مهام ادارة شؤون الاسرة والانفاق عليها، ولا يمكن ممارسة التمييز على الطرف الذي يقوم به لعدم عمله مهنيا.
- كل ممتلكات الأسرة ومحتويات المنزل المتحصل عليها بعد عقد الزواج تعود إلى المرأة والرجل بالتساوي، الا إذا وقع الطرفان عقدا بغير ذلك.
- يمنع بتاتا وبنص القانون ممارسة اي شكل من اشكال العنف بين الرجل والمراة في الاسرة، ويعاقب القانون من يمارس ذلك العنف، بما فيه دفع تعويضات للطرف المتضرر.

حق الطلاق واجراءاته:

- حق الطلاق مكفول للرجل والمرأة على السواء.
- لا يكون الطلاق قانونيا الا في حالة قيامه بقرار القاضي المختص بناء على اجراءات قانونية سليمة.
- تنظر المحكمة المختصة في طلب الطلاق إذا ما تقدم به أحد الطرفين او كلاهما.
- يجوز التقدم بطلب الطلاق في حالة عدم التوافق بين الزوجين او الاعسار الشديد او في حالة الاخلال المتكرر بواجبات الزوجية او ممارسة التعدي على حقوق أحد الطرفين من قبل الطرف الاخر.
- يحسم القاضي المختص في القضايا المتعلقة بالممتلكات المشتركة، - وحق النفقة لاحد الزوجين على الاخر إذا استدعي الحال.
- من حق اي من الطرفين بعد 4 أشهر من عقد الطلاق الزواج من جديد بطرف اخر.
- لا يحق للمطلقين اعادة الزواج بينهما إذا لم يكن أحدهما او كلاهما قد تزوج وطلق من طرف اخر بعد طلاقهما.

الاطفال: مسؤوليتهم ونسبهم وحضانتهم:

- تعد المسؤولية عن الأطفال ورعايتهم من مسؤولية الابوين على السواء.
- الانفاق على الاطفال من مسؤولية الابوين، ويعتبر العمل المنزلي جزءا من الانفاق.
- الابوين مسؤولان عن الانفاق على الاطفال حتى سن ال18 عاما.
- من حق كلا من الابوين القرار في تسمية الأطفال ويمكن ان ينسب الطفل لعائلة ابيه او امه.
- الأطفال مجهولو الابوين يمكن تبنيهم من قبل الآخرين ويتم نسبهم الي الاسر المتبنية.
- للطفل المتبني كافة حقوق الطفل الطبيعي وخصوصا في الميراث والنسب.
- الأطفال مجهولي الأبوين والذين لم يتم تبنيهم ترجع مسئولية رعايتهم للمجتمع، ويتم تسميتهم بالاسماء الاكثر شيوعا في منطقتهم وثقافتهم.
- في حالة طلاق الابوين، يكون الاطفال حتى سن التاسعة تحت مسؤولية الام المباشرة ويقيموا معها.
- بعد سن التاسعة، يتم إعادة منح حق حضانة الطفل إلى أحد الابوين مع الأخذ بنظر الاعتبار رغبة الطفل وقدرة اي من الابوين على رعايته والقيام بمسؤولياته.
- يعود إلى القاضي المختص مسؤولية القرار في منح حضانة الطفل إلى ألام أو الأب وفق الاسس القانونية.
- لا يلغي الطلاق ووجود الاطفال تحت مسؤولية أحد الابوين، من مسؤولية وحقوق الطرف الاخر في رعاية الاطفال والانفاق عليهم.
- يمكن للقاضي المختص نزع حقوق الحضانة من أحد الابوين او كلاهما، ومنحها الي الجد او الجدة من الطرفين، او احد الاقارب الاخرين في ظرف عدم حياتة احد الاجداد، في حالة وجود انتهاكات مستمرة من قبل احد الابوين او كلاهما، لحقوق الطفل ومصالحه اوالاضرار بصحته النفسية او الجسدية.

قضايا الميراث:

- الميراث حق من حقوق الورثة، لا يجوز مصادرته او صرفه في غير موقعه.
- للمرأة والرجل حقوق متساوية في الميراث.
- مستحقو الميراث هم الزوج او الزوجة، الاطفال، الاباء الهرم الذين لا مصدر دخل لهم.
- يوزع الميراث بين مسنحقيه بالتساوي.

حرمة الجسد:

- جسد الانسان ذو حرمة، ويمنع بنص القانون الاعتداء عليه.
- يمنع القانون ممارسة خفاض البنات، ويعاقب كل الاطراف التي تشارك في هذه الجريمة، بما فيها دفع تعويضات للطفلة المتضررة، ولا يسقط حقها في اللجوء للقضاء والتعويض بالتقادم.
- يعتبر كل عمل جنسي تجاه اي حدث لم يبلغ ال16 عاما جريمة يعاقب عليها القانون.
- يعتبر الاغتصاب جريمة اجتماعية خطيرة، ويعاقب عليه باقصي العقوبات.
- يمنع ضرب البشر والتعدي عليهم بدنيا داخل الاسرة وخارجها، ولا يسقط حق الطرف المتضرر بالتقادم، ويعاقب الطرف الذي يمارس تلك الجريمة، بما فيه دفع تعويضات للطرف المتضرر.

الصياغة التفصيلية لمواد القانون:

يعكف الموقعون على هذه المذكرة، على افتراع جهد جماعي لصياغة مشروع القانون في صورة مواد تفصيلية، وتقديم مسودة متكاملة يتم تبنيها من الاطراف التي تتبني هذه الدعوة، ونلتزم بتقديم المسودة الاولي في ظرف ثلاثة اشهر من تاريخه، نبني عليها كل جهدنا الدعائي والقانوني والتنظيمي والسياسي اللاحق.

8 مارس 2005

مرة أُخري نحو قانون مدني موحد للاحوال الشخصية في السودان[3]

(ردود على تعليقات)

تفضل عدد من الاساتذة، بالتعليق على اعلان المبادئ المشترك الذي قمنا بتوقيعه ونشره في مجلة سودان نايل الالكترونية، وفي مواقع أُخري، وصدرت اولي هذه التعليقات في عدد يوم 10 مارس 2005 بسودان نايل، وكان من بين المعلقين المستشار القانوني الاستاذ محمد عوض الجيد، والدكتور. أُسامة مصطفي ابراهيم المحامي، والدكتور ايهاب علي سوركتي الطبيب النفسي، فلهم جميعا الشكر الجزيل على الكتابة والراي، رغم اختلاف وجهات النظر الطبيعي والمرغوب.

وفي الحقيقة انني (وفي ظني بقية الموقعين) نرحب تماما بهذا الحوار، ونعتقد انه قد آن الاوان لوضع موضوع الاحوال الشخصية على طاولة البحث، ولن نكل من النقاش مع اي طرف له وجهة نظر سلبية او ايجابية عن مشروعنا، ما دام الحوار الحضاري هو السائد، والدفوعات المنطقية هي الحاكمة، لاننا مقتنعين في النهاية ان الحق هو ضالتنا، وان الحوار كفيل باثبات الصحيح من وجهات النظر.

في هذه العجالة، اقوم بالرد علي مقالات الاساتذة والدكاترة المذكورين، علي امل ان اعود لها في المستقبل بشي من التوسع، بما يشرح ويفصل وجهة نظرنا، ويرد علي الاعتراضات الاساسية لمحاورينا.

في الرد علي المستشار محمد عوض الجيد:

نرحب في البداية بمساهمة سعادة المستشار محمد عوض الجيد، والذي ركز على مرجعية ومصدر القانون، حيث قال:

"نرغب في بيان ان الاحوال الشخصية هي من أكثر الامور خصوصية في حياة الافراد ولابد لتلك القوانين من مراعاة مباديء واعراف واديان ومعتقدات الناس المختلفة عند سنها لأنها تمس أخص خصوصيات الناس."

حقيقة ان قوانين الاحوال الشخصيية تهم الافراد في حياتهم وعلاقاتهم الخاصة، ولكنها لا يمكن ان تكون امرا خاصا، طالما ان الناس يعيشون في مجتمع، وطالما ان التشريع قد آل علي نفسه مسالة تنظيم هذه العلاقات. ان الحياة البشرية وميادئ القانون قد تطورت كثيرا، بحيث لا يمكن ان نترك المسائل العامة - ومنها مسألة الاسرة وحقوقها ودورها في المجتمع - متعلقة بالمبادئ والاعراف والاديان والمعتقدات المختلفة المتناقضة، وخصوصا عندما تكون فيها عشرات المدارس والاجتهادات، وعندما يكون التطبيق العملي لها مجحفا وظالما لنصف المجتمع. ان مبدأ المواطنة واسس العدالة والمساواة، تفترض ان يخضع الناس لقانون موحد، سواء كان ذلك في مجال الاحوال الشخصية او القانون الجنائي او المعاملات المدنية او غيرها.

[3] ردود على تعليقات نشرت بالصحف وشبكة الانترنت عن الإعلان المشترك إعلاه.

اما بشأن انه " ليست هناك في الواقع مباديء مدنية موحدة لا خلاف عليها للاجتماع الانساني"، فنقول اننا لم نترك الامر معما هكذا، وانما ذهبنا وحددنا عددا من مصادر التشريع، والتي نري انها مناسبة لصياغة القانون الذي ندعو اليه، وهي مصادر نؤمن انها تتفق مع "المباديء المدنية للاجتماع الانساني، وهي مباديء واحدة تنبع من وحدة الجنس الانساني ومن عالمية قواعد العدالة"، كما قلنا في اعلاننا.

اما مسالة ان "السودان دولة متعددة الثقافات والاديان والاعراف والاجناس" فهذه حقيقة لا مراء فيها، ولكن هل يمكن ان نتشبث بهذا التعدد، لانتهاك اسس مساواة المواطنين، وللقبول بممارسات تنتهك من حقوق البشر - النساء او الاطفال مثلا، كما تفعل قوانين واعراف الاحوال الشخصية -؟ اعتقد ان لا، واذهب للقول انه في كثير من الثقافات السودانية، فان ممارسة السرقة والهمبتة، تعد عملا مشروعا بل ومرغوبا، لا تكتمل رجولة الرجل الا به، فهل يمكن ان نتساهل بسبب من هذه الثقافات، تجاه جريمة السرقة، ولا نعمل علي ردعها ومنعها بالقانون، وهل يجب ان نتمسك بضرورة سريان هذا المنع والردع علي الجميع، لانه يعبر عن قاعدة للعدالة عامة، مهما كان رأي الثقافة المحلية في ذلك، ام لا؟!

اما القول "أنه ما من شخص سيقبل ان تفرض عليه قوانين تتعلق بأموره الشخصية تحوي من القواعد ما يخالف المباديء الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية التي يؤمن بها." ، فنرد عليه بامرين: الاول ان القانون يسري علي الجميع، دونما اعتبار لراي الشخص واقتناعه به شخصيا، وهذا ما يجعل الهمباتي عرضة للقانون، رغم ان ما يمارسه من "همبتة" ، يتفق مع المبادئ الاجتماعية والثقافية التي يؤمن بها، والثاني ان قواعد القانون الذي نقترحه، بتوخيها لمبادئ العدالة والمساواة، لا يمكن ان تخالف المبادئ الايجابية التي تحكم حياة البشر، دينية كانت او اجتماعية او ثقافية، وانما خالفت بالضرورة الفهم المتخلف والرجعي والسلطوي لها.

تبقيت النقطة الاخيرة في دفوعات سعادة المستشار، والتي تقول:" بقي أن نشير الي ان بالسودان الكثير من القوانين التي تقيد الحريات وتتعدى على حقوق المواطنين واموالهم وحرية تنقلهم وتؤثر مباشرة على حياتهم اليومية بصورة سلبية وهي تحتاج أكثر من غيرها الي مراجعة واصلاح ولن تكون الدعوة الي مراجعتها واصلاحها (بحيث تراعي حريات الناس وتحفظ حقوقهم واموالهم وملكيتهم الفردية) محل خلاف بين الناس."

نرد هنا اننا ايضا نناضل من اجل الغاء تلك القوانين واستبدالها بقوانين مدنية تتوخي العدالة واحقاق الحقوق، وندعم كل جهد في هذا الاتجاه، ولكن هذا لا يمنع ان نراجع ونصلح وننقد ونتقدم بمشاريعنا فيما يتعلق بقوانين الاحوال الشخصية، والذي تشكل احد تجلياتها - قانون الاحوال الشخصية للمسلمين لعام 1991 - واحدة من اسؤا القوانين المعادية لنصف المجتمع، او قل لكل المجتمع، ولا مناص لنا من اصلاح قوانين الاحوال الشخصية، اذا اردنا اي اصلاح اجتماعي او ثقافي في السودان، وفي هذا لا نهاب الخلاف في الراي ولا نتجنبه، ففي الخلاف رحمة، كما جاء في الاثر.

في الرد علي الدكتور اسامة مصطفي ابراهيم:

الدكتور اسامة مصطفي ابراهيم، تقدم خطوة الي الامام عن طرح المستشار محمد عوض الجيد العام، حيث ناقش اقتراحاتنا بصورة تفصيلية، ووقف ضد بعضها وايد بعضها، ونحن اذ نشكره على تاييد جزء كبير من اطروحاتنا، فاننا نناقش معه ما نعتقد انه لب مشروعنا، مما لم يجد منه التقبل للاسف.

يقول دكتور اسامة:" وان موضوع تساوي الناس امام القانون، ولا يعني إلزام كل السكان بقانون واحد في مسائل الأحوال الشخصية ويفرض عليهم وان كان مخالف لدينهم ومعتقداتهم، بل الصحيح ان يكون هنالك قانون واحد للاحوال الشخصية وليس موحداً، بحيث يتضمن النص على الاحكام التي تطبق على المسلمين وغير المسلمين، سواء كان مستندا على الاديان الاخري أو الاعراف بالنسبة للذين ليس لهم ديانة، حيث ان هذا المبدئ يجد سنده في المواثيق الدولية و معظم الدساتير هو مبدأ احترام حرية الديانة والاعتقاد، الخ"

اننا هنا لن ندخل في جدل اجرائي حول هل يكون القانون موحدا ام واحدا، وانما نقصد ان يكون القانون ساريا وشاملا للجميع، لا يفرق بين المواطنين على اساس الدين او الثقافة او العرق، وهذا في ظننا لا يتعارض مع مبدأ حرية الاديان، بل يعززه، حيث ان الدين هو من قضايا الفضاء الخاص، وهو علاقة الانسان بربه، اما القانون فيعالج قضايا الفضاء العام، وهو علاقة المواطن مع غيره من المواطنين.

عن تجربة انجلترا لا أستطيع الحكم عليها، لاني لا اعلم الكثير عنها، ولكن تعددية القانون في المسالة الواحدة، لا يمكن ان يكون دلالة صحة وعافية، اما اتفاقية ألغاء كافة اشكال التفرقة ضدالمراة، والتي قال الدكتور اسامة عنها: " فإن هذه الاتفاقية لا ترضي المرأة المسلمة في المسائل التي تتصادم مع الدين الاسلامي، لأن الشرع المطهر قد سن لها تشريعاً متكاملاً لا يقارن بموادها." فاننا لا نعلم متي قالت المراة المسلمة رايها وعدم رضاها عنها، فالمراة المسلمة مقموعة وصوتها مقهور، ونعتقد ان عدم الرضا هذا راجع للدكتور اسامة، اما تعارض الاتفاقية فياتي مع بعض التفسيرات للدين الاسلامي والاجتهادات فيه، وهي (اي الاتفاقية) تتفق مع اجتهادات اخري (محمد عبده، علال الفاسي، محمود محمد طه، الخ) ، وفي كل الاحوال فان ما يحكم قوانين الاحوال الشخصية هو في الغالب اجتهادات فقهية ومذهبية، ولا نعرف ان كانت هذه الاجتهادات هي ما يسميه حضرة الدكتور بالشرع المطهر، ومن البديهي ان كل تلك الاجتهادات غير ملزمة للجميع، وهي غير ملزمة لنا - نحن الموقعين - قطعا، ولذلك نفترع مشروعنا هذا.

يقول الدكتور اسامة: " ان مسألة الاحوال الشخصية يجب أن تكون خاضعة لدين أومذهب الاطراف أو اعرافهم، حيث لا يمكن الزام المسلمين مثلاً بما جاء في المبادئ التي وردت في المقال المنشور، حيث وجود قواعد قانونية مختلفة بسبب الدين أو الاعرف فيه احترام لمبدأ حرية الاديان والعقدية خصوصا في مسائل الاحوال الشخصية،" اننا لا نتفق مع هذا الراي، فلا يمكن احترام قواعد او اعراف اذا كانت تنتهك المبادئ الدستورية الاساسية في مساواة المواطنين امام القانون، وعلي دكتور اسامة اذن ان يناضل ضد المبدا الدستوري بمساواة المراة والرجل ومساواة المواطنين امام القانون، اذا اراد ان يكون متناسقا في طرحه، وكذلك يمكنه نقل كلامه عن قانون الاحوال الشخصية، للقانون الجنائي وقانون المعاملات المدنية وغيرها، فللعديد منها اصول دينية وان كانت غابرة، ولكن تطور القانون يفترض تاطيره وشموليته وسريانه علي الجميع، كما أننا نتوقع ان يسند اغلب المسلمين مشروع قانوننا، اما مقولة دكتور اسامة التي يقول فيها: "حيث القواعد التي وردت في الدين الاسلامي تعتبر عادلة لان مصدرها سبحانه وتعالى." ، فالدكتور يعلم انه هناك اجتهادات كثيرة في اطار تلك القواعد، وان تلك القواعد مربوطة بمقاصد التشريع، وبتاريخية الظرف، وبادراك وافق

المفسرين والمؤولين، وهي امور تحدث فيها العديد من الفقهاء والعلماء، وتعددت اجتهاداتهم فيها، بما لا يجعل راي اي متحدث في هذا الاطار تعبيرا عن الشرع او الاسلام، وانما تعبيرا عن رايه هو لا غير.

اما الاجتهادات القانونية السودانية المستنيرة فهي كثيرة، وليس هذا مجال تعدادها، ونحن قد وضعناها كاحدي مصادر مشروع القانون الذي ندعو اليه، شرط الا تتناقض مع العهد الدولي للحقوق المدنية، وكذلك مع اتفاقية مناهضة كل اشكال التمييزضد المراة، وسنفصل في مسالة هذه الاجتهادات فيما بعد.

وقد اتي الدكتور اسامة بمجموعة نصوص قرآنية كريمة، ليصل منها الي اباحة تعدد الزوجات دينيا، وكذلك إلزام الرجل فقط بالانفاق، والتميز في الميراث، وغيرها من اعمدة الطرح الفقهي التقليدي المناهض لحقوق المراة، ونحن نقول ان هذا هو فهم الاستاذ دكتور اسامة، وهو فهم لا يلزمنا، وقد دار جدل كثير حول تلك الايات ومقاصد المشرع منها، مما يمكن الرجوع اليه في اماكنه.

ما نود قوله هنا، هو ان الخليفة عمر بن الخطاب، قد عطل حدا من حدود الله، وهو حد السرقة، في عام الرمادة، وذلك للظروف الاجتماعية السائدة، ووفق اجتهاد فيما فيه نص، كما انه منع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم، وقال لهم ان الاسلام عزيز بدونهم، فلهم ان يسلموا او لا يسلموا، ومنع عنهم ما كان يعطيهم الرسول وخليفته الاول، وذلك في تعارض صريح مع نص الاية التي تقول: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

نقول هنا ان الخليفة عمر بن الخطاب اذ خالف نص الآية، فهو لم يخالف روحها، ولم يخالف مقاصد التشريع، حيث ادرك الظرف التاريخي لاعطاء الصدقات للمؤلفة قلوبهم، ولم يتحرج ان يذهب مع اسس العدالة لدرجة منعهم من الزكاة ، واغلبهم كان ذو مال وجاه، ولو خالف بذلك سيرة الرسول وخليفته الاول ونص الآية، ولم يجد موقفه رفضا من كبار الصحابة، وكان بلا شك محقا في اجتهاده، ولم يخرجه ذلك من دائرة الشرع او الاسلام، و قد تم كل ذلك بعد اعوام قليلة من وفاة الرسول الكريم، ناهيك عن حاجتنا الي مثل هذا الفهم اليوم، بعد الف ونصف من الاعوام من وفاة الرسول.

مسالة اخري وهي مسالة الرق والسبي وامتلاك ما ملكت الايمان، وهو امر مباح في الاسلام، حسب الظرف التاريخي، وان سعى المشرع الاسلامي الي توفير حياة كريمة للرقيق، والتوجه نحو عتقهم، الا ان الرق والسبي مباح حسب النصوص والفهم التقليدي، فهل يحق اليوم الدفاع عن تلك الممارسات، وقد بلغت البشرية شاؤا عظيما في تحرير الانسان من ربقة الرق، وذلك لانها مباحة في الاسلام او القرآن؟؟ لا اعتقد ان دكتور اسامة سيقف هذا الموقف، والذي لا يتبناه اليوم الا بعض المجرمون والمهووسون من اهل الجماعة الاسلامية المسلحة في الجزائر، والذين يختطفون النساء ويأسرونهن ويغتصبونهن، باعتبار انهن "سبي حلال " لهم، ومما ملكت ايمانهم، وهم في كل هذا يأفكون.

نقول اذن ان تعدد الزوجات وان كان مباحا في صدر الاسلام، الا انه لم يكن فرضا، وانما كان قصد المشرع الواضح هوتقييد التعدد، وذلك لانه قيده من عدد لا يحصي الي اربعة، وحتي في الاربعة قيجه بشروط قاسية ، ومنها العدل، وقال القران ان هذا صعب التحقق ولو حرص الرجال، وفي ذلك قالت الايات: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً) ، وكذلك: (وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ

اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)، فكيف يصل دكتور اسامة من هذا كله، ليس الي منع التعدد اليوم، وانما الي الاصرار عليه، وكانه من الفروض الاسلامية الاساسية، كالصلاة والصوم ؟

بعد هذا كله نخلص الي القول، اننا لا نستند في طرحنا كما نشرنا الي فهم ديني، رجعي او تقدمي، وان اتفق طرحنا مع اجتهادات مستنيرة في هذا المجال، وانما نقف علي ارضية مدنية صلدة، وهي ارضية المواطنة ومساواة المواطنين امام القانون، وعلي حصيلة الاتفاقات الكونية في مجال حقوق الانسان والمواطن، والمعاهدات الدولية في هذا الصدد، والقواعد الدستورية التي اتفقت عليها كل القوي السودانية، ولو دعمنا المستنيرون من رجال الدين فهذا يحسب لهم، وسيجد هذا منا التقدير، ولو حاول احد ان يقف ضد حركة التاريخ ومبادئ العدالة والمساواة، بفهم تقليدي للدين، فهو لن يضر الا نفسه، وقوله قطعا لا يلزمنا ، ولا يلزم غيرنا من المسلمين او غير المسلمين.

اما حديث دكتور اسامة عمن لا يروا حرجا، ان يكون لبعض الرجال عشيقة، كما في بعض المجتمعات الغربية، فنحن نري في ذلك حرجا كبيرا، واغلب مواطني تلك المجتمعات تري ذلك، ونري انه لا يتفق مع قدسية مؤسسة الزواج ولا مصالح الاسرة، ونطلب من الدكتور اسامة ان يحدد من اين له الدليل ان من يرفضون تعدد الزوجات يقبلون بوجود علاقات آثمة في الظلام، فلياتنا باقوال موثقة في هذا الصدد، كما اننا في طرحنا لاعلان المبادئ انما نحاول اقناع الناس به، ولن نفرضه بقوة وقسر ولو ملكنا هذه المقدرة، ولا حاجة هنا للتخويف بالتناحر والشقاق، كما ان الحديث عن دعاة التفكك والفجور هو خارج الموضوع تماما هنا، ونربأ بالاستاذ الدكتور من هذه اللغة.

في النهاية نتمني ان يعيد الدكتور اسامة قراءة مواقفه من جديد، وان يكون لنا سندا في قضيتنا العادلة، والشكر له علي الحوار الحضاري.

في الرد علي الدكتور ايهاب علي سوركتي:

في الحقيقة انه من الصعب الرد على مقالة الدكتور ايهاب سوركتي، فهو قد عنون رده بالآية الكريمة: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا)، دون ان يوضح لنا علاقة ما نطرح بحكم الجاهلية، فمن المعروف ان المراة في الجاهلية كانت تؤود، وكانت تجبر على البغاء، وكانت تؤكل حقوقها في الميراث، وكان التعدد في الزوجات قائما علي قدم وساق وبلا حدود، وكانت المراة تسبي وتسترق الخ، فهل طرحنا يقترب من حكم الجاهلية، ام يبتعد عنه بعدا شديدا ؟

كذلك لم يحفل الدكتور بايراد اعتراضاته على اعلاننا المشترك، مع انه قد كتب مقاله بهذا الخصوص، وانما اكتفي بان يحدثنا عن معاناة المراة في الغرب تحت مسمي الحرية والمساواة.. ونحن اذ لا ننكر وجود بعض المعاناة للنساء- لا تزال - في الغرب، فاننا تشك ان كانت هذه المعاناة راجعة للمساواة والحرية حقيقة، ام هي راجعة لعدم اكتمال المساواة والحرية في واقع الامر، اضافة الي ان هذا الحديث المبتسر والشعاراتي لا يقدم النقاش، كما ان معاناة المراة النسبية في الغرب، لا تحجب باي حال المعاناة الكبيرة والتي لا توصف والحقيقية للمراة في "الشرق" ، تحت اسم المفاهيم الدينية والعرفية التي تنتهك حقوقها، ومن بينها كثير من الحقوق التي وهبها لها الدين نفسه، وهو امر نعلمه بالممارسة ومن واقع الحياة وفي بلادنا، وهي محور اهتمامنا الرئيس، وليس وضع النساء في الغرب او ماليزيا او غيرها.

أما وصف افكارنا بالشاذة والمنحرفة والتي تؤجج نار الفتنة، فهذه احكام فجة لم يات الكاتب باي تدليل عليها، وليس هناك أسهل من ان نردها عليه، ولكننا لن نفعل ذلك، لاننا نتوخي حوارا حضاريا، ونحن لم نشتم احدا في اعلاننا ولم نفعل أكثر من عرض افكارنا، ولن نلجأ الي الشتم والتعريض، فهذا سلاح العاجز، فليرد صاحب الحجة بحجته، ولا داعي للمهاترات التي لا تفيد.

في النهاية نشكر الاخ الدكتور سوركتي على طلب الهداية لنا ولنفسه، الي الصراط المستقيم، ونتمني ان تكون بعض الكلمات السابقة قد شرحت موقفنا بصورة أفضل، وندعوه الي حوار حضاري يناقش التفاصيل، ويذهب الي لب دعوتنا وطرحنا، كما فعل الاساتذة اعلاه، ومما لا ريب فيه عندنا ان دكتور سوركتي مؤهل لمثل هذا الحوار، لو تخلي من العمومية والاحكام الجاهزة والفوقية ومنهج التجريم.

مع الاحترام للجميع.

عادل عبد العاطي

(أحد موقعي إعلان المبادئ المشترك)

10 مارس 2005

لماذا يرفض الليبراليون السودانيون تعدد الزوجات والطلاق الاعتباطي؟[4]

أسئلة تستحق الإجابة:

في أسئلة طرحها الأخ العوض الطيب حول الملامح الرئيسية لبرنامج الحزب الليبرالي السوداني، تجاه قضايا المرأة والنوع، وخصوصا المادة حول ضرورة إجازة قانون مدني ديمقراطي موحد للأحوال الشخصية، والتي ورد فيها: (رفض كل أشكال التمييز ضد المرأة بها فيها منع تعدد الزوجات والطلاق الاعتباطي).

تسائل الأخ وليد: "ألا يتعارض (منع تعدد الزوجات) مع مبادئ الإسلام التي يدين بها غالبية الشعب السوداني؟ بمعنى آخر، إذا رغب الحزب الليبرالي في توسعة قاعدته الجماهيرية حتى تكون فاعلة أليس من الجدير أن يوسع إنائه ليسع معتقدات هذه الجماهير، أو على الأقل لا يتعارض معها. إذ أنني أعتقد أن الإسلام يبيح التعدد ولكنه لم يلزم كل المسلمين عليه، كما أن عدد من القبائل السودانية غير المسلمة تبيح التعدد. فلماذا يحرمه الحزب الليبرالي؟ هل منع التعدد هو فعلا في مصلحة المرأة؟"

أسئلة الأخ العوض الطيب جد مهمة إذا ما كان غرض الحزب الليبرالي حقيقة هو انجاز"إجازة قانون مدني وديمقراطي موحد يحكم مجال الأحوال الشخصية والأسرة في السودان. يعتمد هذا القانون علي مبدأ المساواة الكاملة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات، رفض كل إشكال التمييز ضد المرأة بها فيها منع تعدد الزوجات والطلاق الاعتباطي، وضمان وتقنين حقوق المرأة المادية المتساوية داخل الأسرة وفي حالة الطلاق وفي الوراثة". ، كما جاء في الفقرة الرابعة من البرنامج.

أسئلة الأخ العوض مهمة كون أن مادتها ستكون الترسانة الحقيقية ضد أي مجهودات لإجازة مثل ذلك القانون، وذلك تحت اسم الدين والعرف كما تفضل الأخ العوض

قوانين بمرجعية مدنية في كافة المجالات:

أقول في البداية إن الليبراليين السودانيين يطالبون بإقامة قانون مدني، ليس في مجال الأحوال الشخصية فحسب، وإنما في جميع المجالات، جنائية وإجرائية ومعاملات مدنية الخ، وبهذا فان مرجعية القوانين عندهم تعتمد على القيم العالمية لحقوق الإنسان والمواطن، ثم على التراث القانوني السوداني، وعلي المصالح الملحة للمواطنين السودانيين.

هنا يطرح السؤال نفسه، ما هي علاقة هذه المرجعية المدنية للقانون، مع التراث الثقافي للشعوب، كما يتجلي في صورة الدين أو العرف؟

[4] مقال كتبته على قاعدة حوار مع الأخ العوض الطيب في موقع سودانيز أونلاين.

ازعم هنا إن كل من القانون والثقافة هما في حالة جدل وفي حالة تطور، فما نفهمه من الدين بالضرورة اليوم، يختلف عما كان يفهمه من سبقنا بقرن أو قرنين، وكذلك فان الممارسة العرفية تتغير، ويتغير ويتبدل القانون حسب التطور الحضاري والاجتماعي للشعوب والمجتمعات!

هذا ما يؤدي إلى مناقشة قضية تعدد الزوجات في الأديان - الإسلام هنا - وفي العرف، وهل أننا يجب أن نوافق عليها اليوم أم لا، حسب التطور التاريخي في فهمنا وممارستنا ووعينا الحقوقي.

في الإسلام مثلا، فقد أباحت الشريعة المدرسية تعدد الزوجات، ولكن هذا ينبغي أن ينظر له في إطارين

1. الإطار التاريخي لظهور التشريع.
2. نية أو قصد المشرع من تلك الإباحة.

فيما يتعلق بالإطار التاريخي، فنحن نعلم إن تعدد الزوجات عند ظهور الإسلام كان ظاهرة اجتماعية موجودة في كثير من المجتمعات، وقد كانت أيضا موجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد تعامل معها الإسلام بواقعية كما تعامل مع ظواهر سلبية أخري كالاسترقاق والسبي الخ، حيث أباحها مع الاتجاه لتقييدها وتقليصها. أن هذا التعامل أذن ليس من الأمور العقدية في الدين، بل من الأمور الاجتماعية التي يصلح فيها تطور الفقه واللاهوت بما يناسب التطور الاجتماعي. فنحن نجد اليوم انه ليس هناك من يدعو للرق أو السبي أو يقبلها باعتبار أن الإسلام أباحهما، وذلك لان تطور الوعي الحضاري قد رفض هذه الممارسات، ولأنها لا تدخل في إطار العقائد الأولية للدين، فلماذا لا يتم نفس الشئ مع تعدد الزوجات والطلاق الاعتباطي؟

إما فيما يتعلق بنية وقصد المشرع فإننا نراه يذهب في إطار السعي لتقليص هذا التعدد، حيث كان التعدد قبل الإسلام مطلقا وغير محدد، بينما ذهب المشرع الإسلامي إلي تحديده وتقليصه بأربعة، ثم ذاد علي ذلك حين قال" وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة"، ثم في استطراد آخر: "ولن تعدلوا ولو حرصتم".

إن غرض المشرع الإسلامي واضح في منهجه بتقييد وتقليص التعدد، وهو منهج إصلاحي لا يقفز على الواقع الاجتماعي، وقد مورس نفس المنهج الإصلاحي في التعامل مع ظاهرة الرق والرقيق، حيث وضع ضوابط عديدة للتعامل معهم، وذهب إلي وضع وسائل واليات عديدة لتحريرهم سواء بالمكاتبة أو كفارات علي الخطايا المختلفة (عتق رقبة) أو بدخولهم الإسلام الخ.

وإذا كان هذا هو غرض المشرع، فان التطور اللاهوتي والاجتماعي والقانوني في المحصلة، يفترض أن نذهب معه إلى مداه الأخير، أي رفض الاسترقاق اليوم بأي شكل كان، ورفض التعدد في الزوجات باي شكل كان، وهذا هو الاتجاه الذي ذهب إليه المصلحين الإسلاميين مثل الشيخ محمد عبده وعلي عبد الرازق وغيرهم.

إن نشر مثل هذا الفهم وتعميمه وسط المسلمين، والتفريق ما بين العقيدة في أصولها (التوحيد، الإيمان بالغيب واليوم الآخر، العبادات) وبين القضايا الاجتماعية المتحولة، ليست مهمة الحزب السياسي، ولكنها ضرورية هنا للنهوض بالجماهير من إطار الوعي الديني المتخلف الذي يغذيه بعض الرجعيين، إلى إطار الوعي المدني المستنير الذين يجعلهم يرفضوا كافة إشكال التمييز في نفس الوقت الذي لا يتخلوا فيه عن إيمانهم بعقائدهم الأساسية.

هذه مهمة طبعا تقع على عاتق المثقفين والمتنورين من رجال الدين والحقوقيين، وهي مربوطة بالازدياد المضطرد في وعي الجماهير، وفي التطورات الاجتماعية التي تجعل قضايا مثل الاسترقاق وتعدد الزوجات شيئا من مخلفات الماضي البغيض.

العرف والقانون ودور المجددين في عملية التحديث:

في نفس الإطار ننظر إلى أحكام العرف التي تحدث عنها الأخ العوض، والتي تجعل من ممارسة تعدد الزوجات مقبولة في بعض المجتمعات السودانية غير المسلمة.

وإذا كان للعرف سطوة مرات اقوي من سطوة الدين، فانه لا يملك قوة الاستمرار المؤسسية التي تكتسبها بعض أحكام اللاهوت أو الشريعة، وهو متحول إلى حد كبير في الترابط مع التغيرات الاجتماعية، ويكفي أن نقرا دراسة ايفانز عن مجتمع النوير التقليدي مثلا، ثم ننظر لحال النوير اليوم، لنلاحظ عمق التغيرات التي تدخل بتأثير العلاقات والأفكار الجديدة علي العلاقات الاجتماعية، وخصوصا دور المدن والتعليم ودخول نشاطات اقتصادية جديدة في ذلك.

مع هذا فانه مع احترام التطور التدريجي للثقافات، فان القيادات السياسية والاجتماعية والثقافية لها دور في عملية التحديث، ولذلك فإننا سنعمل على محاربة تعددية الزوجات حتى في إطار المجتمعات التقليدية، وعلى أن يسود قانون موحد لكل البلاد في هذا المجال.

مسالة القانون الموحد من جهة أخرى لها علاقة بمبدأ مساواة المواطنين، والمنصوص عليه دستوريا. وقد عانت بعض الدول - مثل الهند - كثيرا من جراء الامتيازات الممنوحة لبعض الطوائف في مجال الأحوال الشخصية - المسلمين مثلا - بينما ألزمت الأغلبية الهندوسية ببعض التزامات القانون العلماني - منع التعدد-. وقد افرز هذا احتقانات سياسية واجتماعية عظيمة، ليس قيام الأصولية الهندوسية إلا أحد تجلياتها.

وتظل هناك مسائل أخرى تحتاج لنقاش أوسع، ومن بينها قضايا الإرث والحقوق المادية للزوجة في ممتلكات الأسرة المشتركة الخ من القضايا التي تعرضت لها الوثيقة في عموميتها، والتي لا تقل خطرا عن موضوع تعدد الزوجات والطلاق العشوائي.

الحزب الليبرالي السوداني حزب الشباب والنساء[5]

أُتيحت لي الفرصة أن أساهم أخيرا في مداولات المؤتمر الأول للحزب الليبرالي السوداني (25-12-2006)، وقد كانت فرصة طيبة للتعرف على أعضاء وقيادات الحزب بداخل السودان - وكذلك المساهمة في وضع صرح لحزب ديمقراطي أؤمن بأنه سيكون له دور مقدر في مستقبل السودان.

وقد استرعى انتباهي الاهتمام الكبير الذي يوليه الحزب الليبرالي لفئتي الشباب والنساء، حيث أن الحزب وضع في نظامه الأساسي أن يتم تمثيل النساء في كل الهيئات القيادية بنسبة الثلث على الأقل، وقد التزم بهذا القرار وطبقه في انتخاب أعضاء وعضوات اللجنة المركزية والمكتب التنفيذي للحزب.

فمن ضمن 20 عضوا وعضوا احتياطيا للجنة المركزية (وهى أعلى سلطة في الحزب بين المؤتمرات)، كانت هناك 8 نساء، أي بنسبة 40% ، أما المكتب التنفيذي وهو اعلي سلطة تنفيذية داخل الحزب ، والذي يضم 7 أعضاء ، فقد كانت هناك 3 نساء ، أي بنسبة أكثر من 42% ، وقد احتلت تلك النساء الثلاثة مواقع محورية وقيادية داخل المكتب، إذ كانت منهم رئيسة المكتب التنفيذي والأمينة العامة للمكتب التنفيذي وأمينة التنظيم والقطاعات.

أما عن الشباب فانه عدا عضوين باللجنة المركزية والمكتب التنفيذي تجاوز عمرهما ال50 عاما، فان اغلب عضوية اللجنة المركزية والمكتب التنفيذي في الثلاثينيات من عمرهم، كما تضم اللجنة المركزية طالبا بالسنة الأولى من دراسته الجامعية (أقل من 20 عاما) ، كما هناك عدد معتبر من الأعضاء ممن هم في العشرينات.

من البديهي أن الاختيار لم يتم على أساس العمر أو الجندر، وإنما على أساس الكفاءات والقدرات والإخلاص والعمل من أجل قضية الحزب والمواطنين، ولكن لا يخفي الإشارات الواضحة في الانحياز لفئتي الشباب والنساء في تلك الانتخابات، مما يوضح تعاظم دورهم في الحزب وفي المجتمع.

حق لنا إذن، ونحن نعرف أن الشباب والنساء يلعبون دورا مماثلا في الأحزاب الأخرى، لكن لا يتم اختيارهم للمواقع القيادية، أن نقول إن الحزب الليبرالي يضرب نموذجا جيدا في هذا المجال، وانه يمكن إن يلقب بحزب الشباب والنساء دون منازع.

2007/1/10

[5] مشاركة كتبت بعد المؤتمر الأول للحزب الليبرالي السوداني.

النسوية الليبرالية

يعتبر تيار النسوية الليبرالية أحد أهم وأقوى تيارات النسوية الحديثة. في ها المقال القصير وغير المكتمل أحب أن أشارك بهذه المساهمة عن هذه المدرسة المهمة والتي ليس هناك عنها مساهمات كثيرة باللغة العربية، رغم انها تعتبر من اهم المدارس في المنطقة العربية وافريقيا والعالم.

النسوية الليبرالية: تعريفات مختلفة:

هناك مجموعة من التعاريف للنسوية الليبرالية، من بينها هذا التعريف من مقال للباحثة سامية البدري:

(النسوية الليبرالية: تستند إلى مبادئها التي أعلنت عنها: المساواة والحرية، والمطالبة بحقوق نسائية مساوية لحقوق الرجل. الأسس الفلسفية لتي تنطلق منها الحركة النسوية الليبرالية في فهمها لطبيعة المرأة، هي: مبدأ الفردية ومبدأ الحرية ومبدأ العقلانية . وغالباً ما يطلق على أية حركة نسوية تسعى من أجل تحسين وضع المرأة في أي مجال من منطلق تحرري غير متطرف ، بأنها : حركة نسوية ليبرالية !)

أما الكاتبة نادية عيسوي فتكتب تعريفا بهذا التيار: (ينتسب هذا التيار الى خط الثورة الفرنسية وامتداداته الفكرية، ويستد الى مبادئ المساواة والحرية للمطالبة بحقوق للمرأة مساوية لحقوق الرجل في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية. ويتميز هذا التيار بإيمانه بقدرة النظام الرأسمالي على ملامسة الكمال والتكيف مع المتغيرات. ويعمل المنتمون إليه من أجل أن يوفر النظام القائم نفس الفرص والحقوق للنساء والرجال، من خلال التركيز على التربية وتغيير القوانين المميزة بين الجنسين وتكوين لوبيات الضغط وتغيير الذهنيات على المدى البعيد.)

أما الدكتورة رانيا كمال فتكتب عن تيار النسوية الليبرالية: (يقوم هذه الاتجاه في النظرية النسوية على الفرضية البسيطة بأن جميع الناس قد خلقوا متساويين، ولا ينبغي حرمانهم من المساواة بسبب نوع الجنس، والمذهب النسائى الليبرالى يرتكز على المعتقدات التى جاء بها عصر التنوير والتى تنادى بالإيمان بالعقلانية والإيمان بأن المرأة والرجل يتمتعان بنفس الملكات العقلية الرشيدة، والإيمان بأن التعليم كوسيلة لتغيير وتحويل المجتمع، والإيمان بمبدأ الحقوق الطبيعية. وبناء على هذا، فما دام الرجال والنساء متماثلان من حيث طبيعة الوجود، إذن فإن حقوق الرجال ينبغى أن تمتد لتشمل النساء أيضاً.

وتعد النسوية الليبرالية مصطلحاً غير طيع لأنه يشمل مجموعة كبيرة من الآراء ليست جميعها متوافقة، لكن بصفة عامة يمكن القول إن النسويات الليبراليات يسعين لتحقيق مجتمع يقوم على المساواة ويحترم حق كل فرد في توظيف إمكانياته وطاقاته.

وتدلنا القراءة المتأنية للاتجاه النسوي الفردي أو الليبرالي إلى أنه أقدم الاتجاهات النسوية تاريخياً. وقد تضمن مساحة كبيرة لمناقشة جدية المرأة سواء في ارتباطها بالأسرة أو في تحررها من الأسرة تماماً.

وقد تمثل الاتجاه النسوي الفردي في المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية في إطار مجتمع ينهض بناؤه على منح الذكور مزيداً من الحرية والديمقراطية. وحقق هذا الاتجاه تقدماً ملموساً خلال القرن التاسع عشر في هذا النطاق، وخاصة في المسائل المتعلقة بحق التعليم وقوانين الطلاق وحق رعاية الأطفال في العديد من مجتمعات أوروبا وأميركا.

وتمتد جذور المبادئ الليبرالية إلى الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر والتي عرفت بحركة التنوير، فقد ظهرت من خلال تعاون ستيوارت مل وهريرت تايلور. لذلك أصبحت المبادئ الليبرالية سلاحاً هاماً في المطالبة بحق الإناث في الانتخاب.

الهدف الأساسي في الاتجاه النسوي الليبرالي هو المناداة بالحقوق المدنية والسياسية للمرأة في إطار مجتمعات تقوم على منح الذكور جميع الحقوق وحرمان الإناث من كثير من تلك الحقوق.)

ونجد في الويكيبيديا وتحت مادة (نصرة المرأة) هذا التعريف لتيار النسوية الليبرالية: (لاتجاه النسوي الليبرالي يرى أن حل مشكلة المرأة يكمن في تغيير القوانين والسياسات بصورة إصلاحية. لذلك فمن الممكن حل مشكلة المرأة بدون أحداث أي تغيير جذري في المجتمع، فكل ما نحتاجه هو تغييرات إصلاحية. ينظر الانثويون والانثويات ذوي الاتجاه اليبرالي لقضية المرأة من منظور فردي، كل أمرأة كفرد قادرة على تحقيق ذاتها والمساوة مع الرجل حتى في ظل المجتمع الذكوري. في الانثوية اليبرالية لا ينظر للطبقة أو الأثنية أو الجنسية الخاصة بالمرأة كعامل ذو أهمية كبيرة، فكل أمرأة قادرة على الاختيار والتغيير حتى تصبح مساوية للرجل.)

أما الباحث كرم عباس فينقل عن ريتشار بيت هذا التعريف عن النسوية الليبرالية (هي مستمدة من مجموعة أفكار الليبرالية الكلاسيكية. وتؤكد النظرية الليبرالية بشكل عام أن البشر متساوون ولديهم قيم أصيلة باعتبارهم كيانات عاقلة. واستنادًا على أساس التساوي العقلي بين الرجل والمرأة فإن الليبرالية النسوية تسعي للحصول على حقوق للنساء، باعتبار الأنثى إنسان مثلها مثل الرجل، لابد أن تحصل على الكرامة والحرية والعدالة وتحقيق الذات وغيرها من حقوق الإنسان. ولا تسعى الليبرالية النسوية للحصول على امتيازات خاصة للنساء بل تطلب العدالة والمساواة للجميع.)

ويعد كتاب رجا بهلول (المرأة واسس الديمقراطية في الفكر النسوي الليبرالي) من أهم الكتب التي عالجت قضية تيار النسوية الليبرالية، ولكنه للأسف غير متوفر بشكل كبير. ويمكن الاطلاع على مقدمة الكتاب المنشورة تحت عنوان "الفكر النسوي الليبرالي" في موقع الحوار المتمدن. أما في اللغة الانجليزية فهناك مساهمات اكبر لقائدات مؤثرات في الحركة النسوية العالمية من الاجيال الثلاثة للحركة النسوية مثل ماري وولستونكرافت (ج1) وبيتي فريدان (ج2) وريبيكا ووكر (ج3) .

النسوية الليبرالية : تاريخها وحركاتها في العالم :

يمكن القول ان النسوية الليبرالية هي أم الحركة النسوية عموما وخصوصا في الغرب، وفي ذلك تقول الكاتبة طاهرة عامر: (رغم أنه من الصعوبة بمكان بعد مطالعة كتب النظريات الموضوعة عن فلسفة النسوية وثقافتها أن تقرأ تعريف النسوية الليبرالية، لكن في واقع الحال فإن النسوية الليبرالية هي التعبير الحقيقي عن أكثر مطالب وإنجازات النسوية المعاصرة.

ورغم أن مصطلح "ليبرالي" يشير إلى التقدميين والديمقراطيين، وأن من مطالب الفِكر الليبرالي الممتد منذ 300 عام هو البحث عن حرية "الإنسان" وحقوقه السياسية والاجتماعية -فإن الليبرالية النسوية تُعنى بتخصيص مثل تلك الحقوق كلها إلى "المرأة". وأبرز ما تنعكس فيه النسوية الليبرالية الكم الذي لا نهاية له من القوانين والتشريعات واللوائح ومشروعات القوانين، التي تُطالب بعدم الاعتداد بعامل النوع في التعليم والتوظيف والعمل والإسكان، وما إلى غير ذلك من المجالات، وتناضل في سبيل هذا.)

يُشار إلى أن أهم ما حققته النسوية الليبرالية في الولايات المتحدة هو صياغة مشروع قرار عن الحقوق المتساوية عام 1923م، ينص على عدم مساس أي جهة في الولايات المتحدة بمبدأ الحقوق المتساوية، وصاغته أليس بول عام 1923م بالتعاون مع الحزب الوطني للمرأة، وظل هذا النص خاضعًا للنقاش في الكونجرس الأمريكي، لكنه خضع للإقرار والتصديق عام 1972م، وكل هذا بفضل ضغوط الموجة الثانية من النسوية.

ونجحت النسوية الليبرالية عام 1966م في تأسيس المنظمة الوطنية للمرأة على يد بتي فريدمان، وسعت هذه المنظمة إلى إدخال نصوص تشريعية تطالب بالمشاركة الكاملة للمرأة مساواة بالرجل في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعددت حركات النسوية الليبرالية في العالم ، ففي الولايات المتحدة فضلا عن المنظمة الوطنية للنساء (National Organization for Women) المشار اليها أعلاه ، فقد قامت منظمات متخصصة اخرى مثل رابطة العمل من أجل انصاف النساء (Women's Equity Action League) والتي تأسست عام 1968 والفراكشن السياسي الوطني للنساء (National Women's Political Caucus) والتي تأسست عام 1971 ومؤسسة الأغلبية النسوية (Feminist Majority Foundation) والتي تأسست عام 1987 وبدأت منذ عام 2001 االعمل كناشر لمجلة (Ms.) غيرها من المنظمات المشابهة - على مستوى العالم هناك حركات كثيرة ولكن من اهمها "الشبكة الدولية للنساء الليبراليات".

اليوم تخوض إحدى ممثلات النسوية الليبرالية وهي هيلاري كلينتون معركة الرئاسة الامريكية. وهناك اشارات قوية أنها يمكن أن تكسب تأييد حزبها الديمقراطي في منتصف هذا العام والانتخابات الرئاسية الأمريكية في نهاية هذا العام اعتمادا على الصوت النسائي؛ وكأول أمرأة تتقلد هذا المنصب الهام في الولايات المتحدة.

النسوية الليبرالية في السودان:

في السودان كان "التحالف النسوي السوداني" الذي نشط في الجزء الثاني من التسعينات بقيادة سارة كليتو ريال وندى مصطفى علي يعبر لدرجة كبيرة عن افكار النسوية الليبرالية. كما إن اغلب قيادات المنظمات النسوية المدنية في الألفية الجديدة قد كانت تتبنى أفكار النسوية الليبرالية؛ وإن لم تعلن هذا. يمكن أن نذكر هنا الاستاذة عائشة الكارب أو

الدكتورة ناهد طوبيا. كما لعبت الاستاذة نور تاور كافي دورا كبيرا في تأسيس هذا التيار سواء عبر قيادتها للحزب الليبرالي أو عبر مقالاتها الراتبة حول قضايا المرأة السودانية. اليوم فإن هناك مجموعات ومنظمات وشخصيات عدة تعمل في السودان يمكن ان ندرج اطروحاتها تحت بند النسوية الليبرالية.

التقاطعات بين النسوية الليبرالية والمدارس النسوية الاخرى:

عموما هناك حوالي 4 او 5 مدارس نسوية رئيسية فاعلة حاليا:

1. النسوية الليبرالية
2. النسوية اليسارية / الاشتراكية / الماركسية
3. النسوية الراديكالية
4. النسوية الفردية
5. النسوية المحافظة.

هذه هي التيارات الأساسية للنسوية؛ اضافة الى تيارات اخرى أصغر يمكن ان تضاف للمدارس اعلاه مثل مدارس النسوية البيئية ونسوية المتحولين والنسوية السوداء والنسوية اللاسلطوية الخ -. إن هذه المدارس تحتاج الى دراسات معمقة يمكن أن يجدها الباحث أو المهتم؛ ولكن عموما يمكن ان نقول ان النسوية الليبرالية تتوافق وتتقاطع وتكمل نفسها مع النسوية الراديكالية التي تبحث عن تغيير جذري في المجتمع والنسوية الفردية التي تسعى الى رفع قدرات النساء حتى لو لم يكن منظمات ويعملن على تطوير مقدراتهن الخاصة.

فبراير 2016

الجزء الثاني:

محاورات ومقاربات

ينبغي ان نأكل كل اصنامنا المقدسة
(حوار مع الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم)[6]

مدخل:

بمزيد من الاهتمام، قرأت ملاحظات الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم عن سمنار المراة، المنظم من قبل مجلة درب الانتفاضة على الشبكة العالمية، وكذلك دعوتها للحوار الفكري حول منظمات ونشاطات النساء السودانيات. [ii] انني اعتقد ان الوقت الحالي مناسب للنقاش، وخصوصا بعد ان تم ضمان عضوية الاستاذة فاطمة في قيادة التجمع الوطني الديمقراطي.

لقد قاتلنا جميعا لنضمن للاستاذة فاطمة مكانها المشروع في هذه المؤسسة، وذلك رغم ان العديدين منا لم يكونوا راضين لا بالطريقة التي عللت بها الاستاذه فاطمة مطالبها بالتمثيل في قيادة التجمع الوطني الديمقراطي، ولا بالطريقة التي تقود بها الاتحاد النسائي السوداني، وادعائاتها عن موقع استثنائي تحتله هي ومنظمتها ضمن حركة المراة السودانية.

ونقرر من البداية، انه يبقي خارج مثار الجدل، الدور العظيم الذي قامت به الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم في إطار حركة المراة السودانية، وكذلك نضالها ضد مختلف الانظمة الديكتاتورية ومن اجل الديمقراطية. ويبدو لنا ان الجهلة فقط، يمكن لهم ان يرفضوا لها موقعها في التاريخ السوداني الاحدث. ولكننا سنكون أكثر جهلا، اذا ما اغمضنا اعيننا، ورفضنا ان نري الاخطاء الكبيرة وحالات الفشل العظيمة في درب الاتحاد النسائي، والحزب الشيوعي السوداني الذي تنتمي اليه، وفي درب فاطمة احمد ابراهيم شخصيا، والمتمثل في طريقة نشاطهم وقيادتهم وبرامجهم ضمن اطار الحركة النسوية السودانية.

الاستاذة فاطمة ما بين النظرة الحلقية وضعف المؤسسية:

ان فاطمة احمد ابراهيم، كما كتبت بنفسها، قد رفضت ان تمثل كل حركة النساء السودانيات في قيادة التجمع الوطني الديمقراطي، كما رفضت ان تمثل كشخصية قومية، واضافة الي ذلك فقد صرحت بانها لن تمثل مطلقا الحزب الشيوعي السوداني، في قيادة التجمع، وذلك لانها والحزب الشيوعي، يحترمان استقلالية الاتحاد النسائي السوداني، والتي هي رئيسته. لقد فضلت الاستاذة فاطمة ان تمثل كقائدة للاتحاد النسائي السوداني، وطالبت بعضوية كاملة ودائمة لمنظمتها، في بنية وقيادة التجمع الوطني السوداني. تم هذا في نفس الوقت الذي وضعت فيه الاستاذة فاطمة شروطا عدة، تكاد

[6] تعليق قدم الي سمنار : النساء السودانيات والسياسة ، والمنظم من قبل مجلة درب الانتفاضة بالشبكة العالمية ، 1998 . كتب التعليق بدءا بالانجليزية ، ثم ترجم فيما بعد !

تكون تعجيزية، للمنظمات النسوية الاخري، لكيما يتم تمثيلها في التجمع الوطني الديمقراطي، ومن ضمنها ان تقدم (هذه المنظمات)، سجلا بنشاطاتها، واثباتا بوجود لها في السودان، ودلائل علي انها طالبت ودعت الي تمثيل النساء في التجمع، الخ الخ .

ان التعريف الوحيد الذي يطرأ لنا، لتفسير موقف الاستاذة فاطمة هذا، هو الحلقية. ان الاستاذة فاطمة لا ترغب في تمثيل عموم النساء، كما لا تود ان تعامل كشخصية وطنية، ولن تمثل حزبها، بل تطالب بتمثيلها كرئيسة لمنظمتها، وتناضل من اجل حقوق تلك المنظمة اساسا. انها لن تدعو قط الي تمثيل المنظمات النسوية الاخري، وتوسيع دائرة التمثيل النسوي في التجمع. كما انها ستستفيد من دعم المنظمات النسوية الاخري في تحقيق مطالبها، مثل التجمع النسوي بداخل السودان، ومنبر المراة في القاهرة، ولكنها لن تدعم قط مطالب الاخرات / الاخرين لكيما يتم تمثيلهن/ م. اكثر من ذلك، ان الاستاذة فاطمة ستضع شروطا لهم، لكيما يتم تمثيلهم كمنظمات نسوية!

لقد كان المتوقع ، ان تدفع الاستاذة فاطمة تجاه اكبر تمثيل نسوي ممكن داخل التجمع ، والا تضع الشروط التعجيزية للاخرين ، كما وضعت لها ، من قبل دهاقنة التجمع . ولكن يبدو ان الاستاذة فاطمة لا تري حركة نسوية غير تنظيمها، او تود ان تحتكر تمثيل النساء السودانيات، وهذه هي الحلقية عينها. ان كل هذا لن يساعد قطعا في دعم القضية النسوية، كما لن يدعم قضية الديمقراطية داحل التجمع الوطني الديمقراطي. ويبقي ان كل هذه المواقف الحلقية، مفادة تحت الزعم بان الاتحاد النسائي السوداني، هو المنظمة الاقدم، والاكبر، والاكثر استقلالا، وسط تنظيمات الحركة النسوية السودانية، والذي حقق للمراة السودانية، كل الانجازات والانتصارات في تاريخها الحديث.

ان موقف الاستاذة فاطمة الحلقي، من قضية تمثيل النساء في التجمع الوطني الديمقراطي، وعلاقتها المتعالية والفوقية تجاه المنظمات والمجموعات والشخصيات والبرامج النسوية الاخري، ياتي من قناعة راسخة لديها، بانها (واتحادها النسائي)، هما الممثلان الوحيدان والشرعيان للنساء السودانيات. كما ياتي من شعور رسالي تحمله، ومن حساسية مطلقة تجاه اي نقد موجه الي افكارها ونشاطاتها، ورغبة في شخصنة العمل العام والقضايا العامة. لقد او ضحت الاستاذة فاطمة، في مرات عديدة، كيف يمكنها ان تحول قضايا وطنية خطيرة، الي معارك شخصية. لقد فعلت ذلك مرات عديدة في معاركها ونزالاتها داخل الحزب الشيوعي السوداني، وفي قضية ما يعرف بامتيازات حملة الشهادات العربية وديمقراطية التعليم في الثمانينات، حين كان ابنها أحد حملة هذه الشهادات، والآن في اثناء الحوار حول قضية النساء والسياسة، وتوسيع تمثيل النساء في الحياة السياسية السودانية. ان القارئ لكتابات الاستاذة فاطمة، يري كيف يتشابك العام والشخصي فيها، بدرجة يستحيل معها الفصل ما بينهما.

لقد ناضلت الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم بضراوة داخل الحزب الشيوعي السوداني، لتحديد من يملك قيادة فروع الاتحاد النسائي السوداني، هل هي فروع الحزب المحلية والاقليمية، ام القيادة المركزية للاتحاد النسائي السوداني. وقد رفضت مطلقا ان تقود فروع الحزب وقياداته الاقليمية، فروع الاتحاد النسائي في مناطقها، وهذا موقف يحسب لها، ولضمان استقلالية الحركة النسوية من التغول الحزبي ومن تجييرها للحزب. ولكن الاستاذة فاطمة بالمقابل، لم ترفض ابدا مساعدة ودعم فروع الحزب وقياداته المحلية والاقليمية، لبناء فروع ومنظمات اتحادها النسائي، بل على العكس، كانت تنتقد ضعف مبادرة الرجال من الشيوعيين في ذلك! لقد ارادت الاستاذة فاطمة ان تستخدم كل امكانيات الحزب

الشيوعي لبناء ودعم اتحادها النسائي، ولكنها رفضت له اي دور في تسيير او قيادة فروع الاتحاد، حتى حينما كانت قيادة الاتحاد النسائي المركزية غائبة او مفككة.

ان مجلة صوت المراة، هذه الجوهرة في تاج الاتحاد النسائي، كما تصورها الاستاذة فاطمة، قد طبعت ووزعت لسنين عديدة، بدعم مباشر من الحزب الشيوعي السوداني، ومن موارده، وليس من موارد الاتحاد النسائي. ولم تحرك الاستاذة فاطمة ساكنا، بل بدت سعيدة بهذا الدعم. ان الاستاذة فاطمة بعد هذا كله، تأتي لتحدثنا عن استقلالية الاتحاد النسائي السوداني، وكيف بني منظماته وفروعه في كل السودان، وكيف ان صوت المراة كانت ولا زالت المنبر النسائي الوحيد، وكيف حقق الاتحاد النسائي الانجازات الضخمة للمراة السودانية. انني احقاقا للحق اقول، انه لولا دعم ومساندة الحزب الشيوعي السوداني في المركز وفي الفروع، لما استطاع الاتحاد النسائي مطلقا، ان يبني فروعه وبنيته ولا ان ينشر هذه الاعداد القليلة من مجلة صوت المراة، والتي لا يتناسب حجم ما اصدرته، مع الضجة العظيمة التي تثيرها عنها الاستاذة فاطمة. ولكلي لا اتجني فاني اسال الاستاذة فاطمة، كم عددا من هذه المجلة قد صدر في خلال ال30 عاما الاخيرة؟ قطعا ليس أكثر من عشرين عددا، ومن ضمن ذلك ليس أكثر من 5 اعداد في 4 سنوات هي عمر الفترة الديمقراطية الثالثة (1985-1989).

ان موقف الاستاذة فاطمة، من هذه العلاقة الغامضة والخفية والمتوترة، بين اتحادها والحزب الشيوعي السوداني، والتي هي عضو في اعلي قياداته (االلجنة المركزية للحزب)، لا يمكن ان يوصف الا بانه مذدوج وبرغماتي – منفعي - . وقد سببت هذه العلاقة غير المفهومة وغير المؤطرة، الكثير من المتاعب ليس للاتحاد النسائي وحده، وانما لمجمل الحركة النسوية االسودانية. واذا كان الحزب الشيوعي، لاسباب يعلمها، غير راغب او غير قادر علي تاطير هذه العلاقة، فاننا نزعم بان هذه الحالة قد كانت جد مريحة للاستاذة فاطمة، حيث ضمنت لها دعم حزبها (هذه الذى تناوشه وتختلف عنه اكثر من اتفاقها معه)، مع ابقاء سيطرتها كاملة علي الاتحاد، والذي تعتبره ملكها شخصيا – حقها عديل -، وذلك في سلوك يضرب عرض الحائط بأي موسسية وبالمحصلة بمصالح الاتحاد النسائي والحركو النسوية في عمومها.

انني لكيما اظهر كيف تعامل الاستاذة فاطمة، الاتحاد النسائي السوداني، وكانما هو ملكية خاصة لها ، فساروي حكاية من تجربتي الشخصية ، اعرف انها ليست الوحيدة علي شاكلتها . لقد كنت في الاعوام 1983-1985 ، منخرطا في جهد للمساعدة في بناء فروع وقيادة الاتحاد النسائي السوداني في عطبرة ، والتي اندثر فيها الاتحاد تماما بعد يوليو 1971 . ورغم اني قد كنت مكلفا شكليا بهذا العمل من قبل قيادة اتحاد الشباب السوداني بالمدينة ، الا ان المنظم الحقيقي قد كان هو لجنة الحزب الشيوعي بعطبرة . وقد قمنا بهذا العمل ، مع العديد من النساء الشابات والطالبات ، واعدنا تنظيم الاتحاد النسائي وبناء فروعه في كل احياء عطبرة ، وبناء قيادة فعالة له بالمدينة، بعد اثني عشر عاما من الغياب الكامل ، وقد تم ذلك دون اي مساعدة او دور لقيادة الاتحاد النسائي المركزية ، وربما دون معرفتها . وقد حصلت نتيجة جهدي، علي العضوية الفخرية للاتحاد النسائي بعطبرة ، مع عدد من الزملاء الاخرين الذين ساعدوا كذلك في حملة البناء تلك .

بعد انتفاضة مارس-ابريل 1985، حضرت الاستاذة فاطمة الي عطبرة ، لتجد الاتحاد منظما وفاعلا في كل المدينة ، وبوحدات عاملة في كل الاحياء الرئيسية . وماذا فعلت حينها ؟ هل سرت بما حدث ، وهل قرظت وشجعت العضوات اللاتي قمن بهذا العمل العظيم ، واللاتي كن يتحرقن شوقا الي لقياها وسماع كلمة منها ، كلا . لقد غيرت بقرار شخصي ، وبدون تشاور مع احد ، قيادة الاتحاد الناشي بالمدينة ، واستبدلتهن بعناصر قديمة ، كانت في الاتحاد قبل العام 1971 ،

وهن نساء لم تكن تعرفهن اي عضوة في الاتحاد ، ولم ترهن احداهن بعينها ، طوال عامين من بناء ونشاط الاتحاد ، بل لم يكن عضوات في ايا من فروع الاتحاد القائمة حينها .

ما هو السبب الذي قدمته الاستاذة فاطمة لهذا القرار المفاجي والشخصي ، والبعيد عن اي مؤسسية ، والمهدر لانجازات الغير ، والمنعدمة فيه ابسط قواعد اللياقة والاخلاص ؟ لقد عللت الاستاذة فاطمة قرارها بان قيادة الاتحاد القائمة ، واالتي بنته واسسته في ظل ظروف قاهرة ، هن اصغر عمرا ، واعلي تعليما ، من ان يشكلوا قيادة جاذبة للنساء العاديات ، وان معظم عضوية الاتحاد ، هن من الطالبات والشابات العاملات ، وتكاد تنعدم فيه ربات البيوت ، الامر الذى يجب تغييره. لقد كانت هذه القيادة – صغيرة العمر – تتكون من 7 شابات ، كلهن فوق الخامسة والعشرين ، ثلاثة منهن متزوجات ، وكلهن يعملن !

ماذا كانت النتيجة للاتحاد النسائي بعطبرة ؟ لقد انعزلت عنه او عزلت مجموعة من اكثر الناشطات حيوية واخلاصا، وابتعدت عنه او ابعدت ، العديد من العضوات ، ممن لا يلتقي مزاجهن وطريقة تفكيرهن ونشاطهن ، مع القيادة الجديدة – القديمة ، والتي ادارت الاتحاد باساليب اومية عائدة للستينات ، وبشكل اكثر من تقليدي ، في وجه منافسة شرسة من الحركة النسائية الاصولية الناشطة ، ذات القيادة الشابة في المدينة . ولم تفلح هذه القيادة المعينة – الاكبر سنا والاكثر تقبلا من النساء العاديات - ، من مديرات المدارس ورئيسات الدايات والتاجرات ، في جذب النساء العاديات اللائي تم تعيينهن من اجلهن ، وذلك لانهن – بسبب العمر والتغييرات العديدة – كن اقل نشاطا واكثر تقليدية واعلي مستوي معيشيا ، من ان يجذبن العاديات من النساء المستهدفات . وهكذا فقد الاتحاد النسائي العناصر الشابة ، دون ان يكسب ربات البيوت ، واللاتي انضممن وصوتن في معظمهن للاتحادي الديمقراطي والجبهة الاسلامية ، وكان قرار الاستاذة فاطمة بذلك خطأ فاجعا علي كل الجبهات .

الاتحاد النسائي : محاولة للتقييم الموضوعي:

لقد اعطت الاستاذة فاطمة ، العديد من الاسباب ، التي تدعوها للظن بان الاتحاد النسائي هو المنظمة النسائية الاولي في السودان ، والممثل الشرعي للنساء السودانيات . اننا لن نتحدث هنا عن الفروع المتعددة ، او اصدار مجلة صوت المراة ، فقد تابعنا ذلك وعرفنا كيف كانت تتكون هذه الفروع ، وكيف كانت تصدر اعداد صوت المراة . وانما سنتابع بقية الاسباب التي تذكرها وتعيد تكرارها الاستاذة فاطمة في كل محفل وبيان .[iv]

تتحدث الاستاذة فاطمة ان الاتحاد النسائي قد ناضل ضد الدكتاتوريات المختلفة . ولا جدال في ذلك . ولكن هذا النضال كان قاسما مشتركا للعديد من المنظمات والافراد والاحزاب ، ولا يعطي اي قيمة اضافية لمنظمة ما . حيث ان النضال الحقيقي والانتفاضات ، قد كانت تقوم بتحركات عفوية من الجماهير ، سرعان ما تلحق بها ، او لا تلحق ، التنظيمات المختلفة ، ودون اقلال من مساهماته ، فان الاتحاد النسائي لا يختلف عن غيره في هذا المجال . اما اذا جاء الحديث عن مواقف الاستاذة فاطمة الصدامية تجاه نظام نميري ، وبعض النشاطات المثيرة للانتباه والتي قام بها الاتحاد النسائي في عهده ، فهي محدودة في النهاية ، وقد كانت في تراجع مستمر ، ونلاحظ الان ان النشاطات التي قامت بها منظمة مثل رابطة اسر شهداء رمضان ، تحت الدكتاتورية الحالية ، قد فاقت في عددها وصداميتها ، كل حملات الاتحاد

النسائي السابقة . اننا فوق شجاعة الاستاذة فاطمة ، ومواقفها العلنية ، والمرتبطة بكثير من العاطفية وردود الفعل ، اكثر منها بعمل سياسي ممنهج ، لا نري اي اسهام متميز للاتحاد النسائي في النضال ضد الدكتاتوريات واستعادة الديمقراطية ، يجعله يتفوق علي التنظيمات الاخري ويبزها.

تتحدث الاستاذة فاطمة كذلك عن نضال الاتحاد النسائي من اجل حق المراة في الترشيح والتصويت ، وعن فوزها في انتخابات ما بعد اكتوبر ، وعملها البرلماني . وهنا نسجل انه ، دون اجحاف بدور الاتحاد ، فان نيل المراة لحق التصويت والترشيح ، كان جزءا من انجازات ثورة اكتوبر ، ولا يمكن جبره كانجاز للاتحاد بصورة حصرا . اما تجربة فاطمة البرلمانية ، فهي تجربة تستحق الاشادة ، حيث شكلت تجربة جديدة في السياسة السودانية ، وادارتها فاطمة باقتدار . ومن الطريق ان الاستاذة فاطمة كانت وقتها صغيرة السنة ، واكثر تعليما مقارنة ب – النساء العاديات - ، وغير متزوجة ، اي انها كانت تحمل كل الصفات التي رات انها لا تصلح للقيادة فيما بعد . ورغم كل التقييم الايجابي لتجربة الاستاذة فاطمة القصيرة ، الا ان هذا تاريخ بعيد ، مرت بعده مياه كثيرة تحت الجسر . وتتعمد الاستاذة فاطمة عدم الاشارة الي فشلها في انتخابات العام 1986 ، ولا تدرس ولا تستخلص اي حكمة ، من واقع ان المراة السودانية في فترة الديمقراطية الثالثة ، كانت ممثلة في البرلمان بعضوتين من الحركة الاصولية ، هما سعاد الفاتح وحكمات حسن احمد .

اننا نسجل هنا ، انه في مجال العمل السياسي ، ورغم شهرة فاطمة ونضالاتها ، الا ان الاتحاد النسائي قد كان ظلا لها ، اكثر من كونه مؤسسة قادرة علي الفعل المستقل ، وخلق قيادات جديدة . ولقد فشل الاتحاد النسائي طيلة تاريخه ، في ان يحدد طبيعته، هل هو منظمة سياسية للنساء ، جناح سياسي للحزب الشيوعي ، مجموعة ضغط ، ام حركة نسائية جماهيرية . اننا نلاحظ ان الاتحاد النسائي السوداني ، خلال ال30 عاما الاخيرة ، وخصوصا في الفترة 1985-1989 ، قد تحول من منظمة ذات اهداف ثورية وذات ديناميكية عالية وخصوبة قيادية ، الي منظمة اصلاحية محافظة ، تهيمن عليها شخصية فاطمة ، واقصي ما تستطيع تقديمه هو توفير السلع بسعر ارخص – نظريا – للمستهلك ، في التجربة التي عرفت بجمعيات ربات البيوت ، والتي كانت مجال النشاط الرئيسي للاتحاد في تلك الفترة ، وغاب الاتحاد تماما عن تقديم اي بديل فكري او اجتماعي او برامجي لجموع الشابات والنساء السودانيات ، وهن يواجهن حد الازمة السودانية والهجمة الاصولية والتمييز المتوارث ومعضلات الحياة الحديثة علي تخوم القرن الحادي والعشرين .

ان الاستاذة فاطمة تتحدث عن انجازات خطيرة للمراة السودانية ، تحت قيادة الاتحاد النسائي السوداني ، لم تحصل عليها المراة في امريكا واوروبا ، ولا في مكان في العالم ! (هذه هي اقوالها حرفيا) . اننا نسأل الاستاذة فاطمة اذن ، انه تحت ظل كل هذه الانجازات ، التي لم تتحقق في اي مكان في العالم ، فلماذا تعيش المراة السودانية لا زال تحت جد الفقر والبؤس ، ولماذا تعاني من المرض والعادات الاجتماعية المتخلفة ، ولماذا تعشعش وسطها الخرافات والجهل والامية الابجدية ؟ ولماذا لا تزال تسيطر الاسرة الابوية في السودان ، حيث للاب والاخ والزوج حقوق لا تحلم بها الام والاخت والزوجة ؟ لماذا كسب الاصوليين اذن مساندة وقلوب وعقول الآلاف من الشابات واليافعات ؟ ولماذا تتجه اخريات اتجاها تسليعيا استهلاكيا ، ويكون جل همهن ان يسوقوا نفسهن جيدا ليبيعوا جسدهم وروحهن لزوج غني ؟! انني لا اعرف عن اي مجتمع تتحدث الاستاذة فاطمة ، فقطعا ليس هو المجتمع السوداني ، الذي لا اري فيه ايا من الانجازات التي تزعمها .

انني بالطبع لا ادين الاتحاد النسائي ولا غيره من المنظمات النسوية في ذلك ، ولا اعتبره مسؤولا عن الحالة البائسة التعيسة ، التي تعيشها النساء السودانيات ، والتي تتحكم فيها عوامل مختلفة ، من ضمن عوامل الازمة الشاملة للمجتمع والدولة السودانية . ويغدو واجب المنظمات النسوية الحديث عن هذا الحال البائس ، ومقارنته بحالة المراة خارج السودان الحقيقية ، والمتقدمة عليه مئات المرات ، ليس في اوروبا وامريكا ، بل حتي في العديد من المجتمعات الاسيوية والافريقية واللاتينية . ان حديث الاستاذة فاطمة اذن عن هذه الانجازات الخطيرة ، والتي لم تتحقق في ايا من بلاد العالم الاخري – ماهي هذه الانجازات ، لا تكشف لنا الاستاذة فاطمة - ، يخالف الحقيقة ، ويزرع اوهاما غير مؤسسة ، عن وضع المراة السودانية ووضع المراة في العالم ، لا تصب حتما تجاه تشديد النضال النسوي والاجتماعي في السودان ، وانما الي تفريغه من محتواه ، وتحبيطه ، والهزء به .

الاستاذة فاطمة والحوار الفكري:

ان الاستاذة فاطمة ، تدعو الي حوار فكري حول قضايا النساء السودانيات . وهذا جيد . ولكنها في هذا الحوار المفترض ، تستخدم لغة قطعية استعلائية ، وتاتي كل مساهماتها ، بهدف واحد وحيد ، وهو تضخيم وتفخيم دورها واتحادها ، في مسيرة الحركة النسوية السودانية ، وفي رضي تام عن النفس . ان الاستاذة فاطمة ، في كل مقالاتها وندواتها وكتبها ، لا تقدم اي نقد ذاتي لتجربتها او تجربة الاتحاد النسائي السوداني ، بل تتعامل بحدة بالغة مع كل من يتقدم بهذا النقد . ان الاستاذة فاطمة تلقي اللوم علي اي فشل ، علي الانظمة الدكتاتورية ، دون ان تتسائل مرة لماذا تركبنا الديكتاتوريات المرة تلو الاخري ، كما تلقي بكل غضبها ، علي الشابات والشبان ، الذين ينتقدونها واتحادها ، دون ان يفعلوا شئيا ، كما لايسلم من هجومها الحركة النسائية في الغرب ، ومفاهيم النسوية واي مفاهيم لا تنسجم مع نظرتها التقليدية والمتصالحة مع الذات عن العمل النسوي .

ان احد اخطر الاسلحة في يد الاستاذة فاطمة ، والتي تكررها دون ملل ، هو ان الشابات من اتباع المذاهب النسوية الجديدة (المنحرفة ؟) ، وكذلك الشبان ، الذين ينتقدن وينتقدوا الاتحاد النسائي ، لا يفعلن ولا يفعلوا شيئا من اجل قضية النساء السودانيات . ان فاطمة لا تري العمل الجبار الذي تقوم به العشرات من المجموعات النسوية والمدنية ، والعمل الفردي الذي تقوم به المئات والالاف من النساء الشابات في السودان وخارجه . انها لا تري نضال الطالبات والخريجات السياسي والنقابي، انها لا تري المساهمة الفكرية والمهنية المتزايدة للنساء في الحياة العامة السودانية ، انها لا تري عمل مجموعات الضغط النسائية المختلفة ، كما انها قبل كل شي لا تري الانجازات الضخمة ، التي تحققها اعداد متزايدة من السودانيات ، في مجال العمل الخاص والابداعي والاكاديمي وفي المنظمات االعالمية .

ان الاستاذة فاطمة التي تعودت علي اشكال تنظيمية بعينها ، اصبحت بالية في عهد ثورة الاتصالات واذدياد الفردية والهجرات والعولمة ، لا تري في كل هذا اي نشاطا ايجابيا ، مادام يخالف تصوراتها التقليدية ، سواء كان عمل افراد او مجموعات. ان الاستاذة فاطمة تسال عن اثباتات لهذا العمل ، ونتائج محدده له . ولهذا العمل نتائج مباشرة عديدة ، قد نرصدها يوما ، ولكن له نتائج اخري غير مباشرة ، اذ هو يراكم المعرفة ، ويغير صورة المراة السودانية عن نفسها ، ويقويها ويمكنها ، وهذا تغيير في الفضاء النفسي والاجتماعي ، اخطر من كل قانون ومن كل تنظيم . ان فاطمة بتركيزها علي

الشجر القديم الذى تعرفه وتحيا وسطه ، لا تري الغابة ، ولا ما يدور في الغاية. انها لا تري ولا تعرف شيئا عن الثورة النسوية التي تختمر وسط النساء السودانيات في داخل السودان وفي خارجه.

ان دعوة الاستاذة فاطمة للحوار اذن ، تفتقد كل جدية ، حيث يكون الحوار ، ليس ذو اتجاهين ، وللوصول الي اجوبة ، وانما هو صياح من طرف واحد ، يتصرف وكانه يمتلك كل الحقيقة ، تجاه طرف آخر متمرد ، لا يمتلك الا شبابه ومؤهلات اكاديمية ، لا معني لها ، مقارنة بتجربة الاستاذة فاطمة والاتحاد النسائي . ان الحوار اذن هو حوار طرشان ، وهو محاولة جديدة لاسكات الاصوات الشابة التي تبحث عن بدائل جديدة سواء في داخل تنظيمات الاستاذة فاطمة ، او في غيرها من التنظيمات، والتي تعتقد الاستاذة فاطمة جازمة ، ان ليس عندهم ما يقدموه ايجابيا ، لصالح حركة النساء في السودان.

ان كل هذا طبعا ، لا ينبغي ان يصرفنا عن النظر الي ازمة الحركة النسوية السودانية ، وضعف اطرها التنظيمية ، وهذا وضع تتحمل فيه المسؤولية اطراف عدة ، من نساء ورجال وتيارات فكرية وسياسية . كما يتحمل فيه المسؤولية الاتحاد النسائي نفسه ، والذي يعتقل امكانيات عديدة لعضواته ، تحت اساليب عمل وافكار بالية وتقليدية . اننا لن نعفي الحركة النسوية الشابة من اللوم ، علي فشلها حتي الان في بناء البدائل الجماهيرية التي تتجاوز القديم ، كما لانعفي الحركة التقدمية والديمقراطية الفكرية والسياسية عن هذا التقاعس العظيم . اننا في مواجهة ازمة الحركة النسوية السودانية ، وبؤس وضع النساء السودانيات، والازمة السودانية عموما ، وبؤس الشعب السوداني ، نقف كلنا – وليس الملك فقط – عرايا ، ولا نستطيع ان نقذف بحجر ، فكلنا ذو خطيئة ، وبيوتنا كلها من زجاج.

ازمة قيادة ومآساة جيل :

ان الاستاذة فاطمة من اشد المنادين بالديمقراطية السياسية في السودان ، ولكنها في نفس الوقت رئيسة للاتحاد النسائي لحوالي ال50 عاما ! ان هذه الحقيقية توضح تراجيدية موقف الاستاذة فاطمة ، وتراجيدية جيلها ورفاقها ، والذين لا يزالوا مصرين علي لعب دور في حياتنا . ان هؤلاء يناضلو من اجل الديمقراطية ، ولكن وفق اساليب تسلطية ، كما يدعوا الي الثورة علي الانظمة الديكتاتورية ، ولكنهم يرفضونها في منظماتهم ، انهم ينتقدون الجميع ، ولكن لا يمكن ان ينتقدوا انفسهم . انهم يتحدثون طول الوقت عن الجماهير ، ولكنهم لا يجلسوا اليها ليعرفوا بماذا تفكر هذه الجماهير . انهم يدعوا الشباب لان يتبعوهم ويساعدوهم ويقدموا لهم عرقهم ومالهم ودمهم ، ولكنهم لا يقبلوا اي نقد او عدم طاعة من طرفهم . انهم يريدوا ان يحكموا المستقبل باسم الماضي ، انهم لا يرغبوا في رؤية الجديد . وهم في كل هذا ، يضروا القضايا والمبادي التي التزموا بها ذات يوم ، والتي قدموا لها الكثير ، فقط لكيما يعارضوها اليوم ، ويفسدوا الايجابي الكثير الذي بنوه في يوم من الايام.

لقد افلحت الاستاذة فاطمة ، في ان تقمع كل التمردات التنظيمية والفكرية في تنظيمها ، الاتحاد النسائي السوداني ، بل وفي مجمل الحركة اليسارية ، حيث حاربت الشابات من عضوات حركة حقوق المراة بالجامعات ، والمخضرمات من ناشطات اليسار، ممن لا ينفقن مع خطها ، وابعدتهن من التاثير علي الاتحاد النسائي ، او الفضاء اليساري عموما ، واعني هنا شخصيات مثل الدكتورة فاطمة بابكر وسعاد ابراهيم احمد. ان الاستاذة فاطمة لم تكتفي بقمع الجديد في معسكرها ،

بل هاجمت منظمات اخري ، مثل جمعية بابكر بدري لمحاربة الخفاض الفرعوني ، وتنظيمات نسوية جديدة . كما امتد نقدها وهجومها علي كاتبات مثل نوال السعداوي ، فاطمة المرنيسي وسلوي الحماش ، وتتخصص اخيرا في الهجوم علي الباحثة الامريكية سوندرا هول ، صاحبه الدراسات العديدة عن المراة في السودان ، والتي قدمت مساعدات عديدة للاتحاد النسائي السوداني .

ان الاستاذة فاطمة ، في حملاتها الدفترداية هذه ، تسمي معارضاتها ومعارضيها تسميات شتي ، فهم مرة مجموعة من الخريجات الشابات ، ومرات حاملات لافكار النسوية ، والتي تصر علي تسميتها بالانثوية ، وهن مرات متاثرات ومنبهرات بالغرب ، وهن مرات مدفوعات من قبل اجانب ، مثل سوندرا هول . وفي كل ذلك تثابر الاستاذة فاطمة علي استخدام خطاب عاطفي تقليدي ، يقترب بصورة حثيثة لان يكون خطابا سلفيا بطريركيا ، اذا لم يكن قد صار. وفي كل هذا تسعي لاخضاع الجديد لسلطة القديم ، واخضاع البنت لسلطة الام ، والشباب لسلطة الاكبر سنا ، والتباهي بالسوداني في مواجهة العالم كله ، وهي في هذا تعيد بتراجيدية ، كل ابجديات الخطاب الذكوري السلطوي ، الذي وقفت ضده ذات يوم.

اعتقد اننا في مواجهة هذا ، لا نملك الا الحزن . ولكننا ينبغي ان نتخلص من التعامل العاطفي ، وعبادة الافراد والايقونات ، كما ينبغي ان نتحرر من كل اوهامنا وذكريات الطفولة والصبا ، وما اقنعنا به وما اقنعانا به انفسنا ذات يوم . ان الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم بكتاباتها ومواقفها الاخيرة ، انما تساعد الكثيرات والكثيرين علي التحرر من اوهامهن واوهامهم . انني احترم الاستاذة فاطمة كثيرا ، واحترم تاريخها ونضالها . وكنت اتمني لو تفرغت لرصد تجربتها ، ومساعدة الاجيال الشابة ، والتي كانت تنظر لها بالكثير من الاعجاب . هذه الاجيال التي تستطيع تحقيق الكثير ، لو تمت الثقة فيها ، ولو وجدت الفرصة وقدمت لها يدالمساعدة . الا اني قد تخلصت من اوهامي ، ولا اؤمن بامكانية ان تقوم الاستاذة فاطمة بهذا الدور ، ما دامت لم تقم به خلال العشرين عاما الماضية ، وترفض ان تقوم به لا تزال.

لا باس اذن ، ستستمر الحياة في سيرها ، ويبقي علينا ان ناكل كل اصنامنا المقدسة ، اذا ما اردنا ان نحيا ، وان نمضي الي الامام .

1998

[ii] راجع رسالة فاطمة احمد ابراهيم ، والتي توجد نسخة منها بهذا الرابط : http://abdelaati.com/fatima.html

كتب التعليق في الوقت الذي كانت فيه الاستاذة فاطمة عضوة بهيئة قيادة التجمع الوطني الديمقراطي ، هذا الموقع الذي ما لبثت ان خسرته فيما بعد ، من جراء مضايقات قيادة التجمع لها ، مما حدي بها الي الاستقالة.

[iv] راجع بيان الاتحاد النسائي بمناسبة الذكري الخمسين للاتحاد علي هذا الرابط:

http://www.d-a.org.uk/opinion/swu_release.htm

التحالف النسوى السودانى
قراءة فى حصيلة 6 سنوات من النشاط

:: الى روح الشهيدة جيهان::

(استشهدت فى 16 اغسطس 2001 فى مجزرة جامعة الجزيرة بالنشيشيبة)

فى الذكرى السادسة لتاسيسه ، يحتاج التحالف النسوى السودانى الى وقفة للمراجعة والقراءة التحليلية النقدية ، سواء من طرف عضواته والمتعاطفات والمتعاطفين معه ، او من مجموع المهتمات والمهتمين بقضايا الحركة النسوية السودانية وقضايا النوع والتحولات الاجتماعية فى السودان .

ظروف التاسيس :

تاسس التحالف النسوى السودانى فى العام 1995 ، من حلقة من الناشطات فى مجال الحركة النسوية ، وكانت فى فى هذه الحلقة عناصر اتت من تجربة الحركة الطلابية ، او من مجال العمل الاكاديمى المتوجه نحو قضايا النوع ، او من العناصر اللصيقة بالحركة السياسية والمتعاطفة مع التنظيم الجديد حينها ، قوات التحالف السودانية . وكان تاسيس حلقات التنظيم الاولى فى القاهرة والخرطوم معتمدا بالكامل على هذه العناصر ، والتى كان لبعضها نشاط مواز فى بعض التنظيمات النسوية والفئوية الصغيرة ، كفجر السودان ، (Feminist Group for Reconstructing Sudan)، ورابطة اسر شهداء رمضان.

فى هذا المجال ، يحتاج الى الاشارة ثلاثة عوامل رئيسسة نعتقد بانها قد حكمت تاسيس التنظيم وتطوره لسنوات ، وهذه العوامل هى :

- ✓ غلبة العناصر الشابة والآتية حديثا الى ساحة الحركة النسوية وسط العناصر المؤسسة التنظيم.
- ✓ ارتباط عضوات مؤسسات (ندى مصطفى ، سارة كليتو ، لاورا بينى) بالعمل الاكاديمى وخصوصا فى مجال الدراسات النسوية .
- ✓ العلاقة الوثيقة مع قوات التحالف السودانية وجناحها السياسى ، التحالف الوطنى السودانى.

فى اعتقادى ان العامل الاول ، وهو غلبة العناصر الشابة وسط العضوية المؤسسة للتنظيم قد كان عاملا ايجابيا ، حيث جاءت هذه العناصر دون اسقاطات تاريخية تعوقها ، فى نفس الوقت الذى قد حققت فيه تراكما معرفيا وتنظيميا ، من خلال النشاط السابق فى حركات سياسية وطلابية ونسوية ، او فى مجال العمل الاكاديمى المرتبط بقضايا النوع . ان بروز قيادة جديدة للحركة النسوية ، ذات تاهيل نظرى عال ، وطاقة شبابية يعتبر عاملا ايجابيا خصوصا اذا علمنا بازمة القيادة التى تعرضت لها مكونات الحركة النسوية السودانية التقليدية ، والتى حكمت نطورها عناصر من جيل الستينات والسبعينات ، بكل اسقاطاتها التقليدية والعقيدية (فاطمة احمد ابراهيم ، سعاد الفاتح و حكمات حسن احمد ، سارة الفاضل) .

من الناحية الاخرى فان الدراسات النسوية قد تطورت كثيرا خلال الثلاث عقود الاخيرة ، وما عاد المدخل للحركة النسوية يعتمد على القاعدتين السابقتين : العمل الخيرى الاصلاحى (كما طرحته تنظيمات الحركة النسوية المرتبطة بالاحزاب الطائفية) او العمل السياسى فى اطار ايديولوجية معينة (كما فى الحركتين النسويتين المرتبطتبين بالحزب الشيوعى والحركة الاصولية السودانية) . ان دخول عامل جديد وهو المدخل الاكاديمى ، المنفتح على النظريات النسوية الحديثة ، وعلى التجارب النسوية الجديدة الاقليمية والعالمية ، والملتزم بنقل معارفه النظرية الى حيز الواقع ، قد كسر طابع المحلية والبدائية والاصلاحية الغالب على الحركة النسوية السودانية ، واضاف لها بعدا نظريا ما كان متوفرا فى السابق ، وبعدا اقليميا وعالميا جديدا ، ما افلحت حتى الحركات النسوية المرتبطة بالتيارين اليسارى والاصولى (بما كونهما تياران كونيان) ، فى الاستفادة منه ، او تعميمه على الواقع السودانى .

العلاقة مع التحالف الوطنى / قوات التحالف :

العامل الثالث والذى اثار الكثير من الجدل فى وقتها ، هو العلاقة الوثيقة بين التحالف النسوى وقوات التحالف السودانية، وهى علاقة تتجاوز النموذج السابق بين الاتحاد النسائى السودانى والحزب الشيوعى ، والتى كانت علاقة تحالف شخصى فى شخص القيادة (فاطمة احمد كرئيسة للاتحاد وعضو اللجنة المركزية للحزب) ، دون تقنين العلاقة فى شخص مؤسسى، فى اطار الاعلان المستمر بان التحاد النسائى تنظيم جماهيرى مستقل ، لا تربطه اى وشائج بالحزب الشيوعى ، الامر الذى ادى الى الكثير من الخلط الذى انعكس اساسا على مصداقية وفعالية الاتحاد النسائى .

من جانبه فان التحالف النسوى يركز على علاقته بقوات التحالف ، وعلى كونه جزءا من حركة التحالف العامة ، ويتبنى مفهوم السودان الجديد – البرنامج المعلن للتحالف – كاطار عام لنشاطاته . ان واقع وجود عضوية فى التحالف النسوى غير منضمة الى قوات التحالف السودانية او التحالف الوطنى السودانى ، لا يغير من علاقة الارتباط الوثيقة بين التنظيم النسوى والحركة السياسية للتحالف ، كما لا يغير منها واقع ان قوات التحالف قد افردت دائرة خاصة للمراة وقضايا النوع فى هيكلها ، موجودة هى فى تواز واستقلال عن نشاطات التحالف النسوى .

هذه العلاقة ، ورغم انتقادها من قبل العديد من الناشطات النساء فى البداية ، الا انها كانت ضرورية بل وايجابية ، بما وفرته من دعم التنظيم السياسى والعسكرى للتحالف للتنظيم النسوى ، سواء فى ادخاله كشريك كامل لحلبة الحركة النسوية السودانية ، المرتبطة بالاحزاب والتى لا تعترف بتنظيمات ليس لها غطاء سياسى ، او فى ايصال صوته الى منابر

مؤثرة فى الحركة السياسية السودانية (التجمع الوطنى الديمقراطى) او فى المجالات الاقليمية والعالمية ، ويتبقى العامل الحاسم وهو الدعم الذى قدمته حركة التحالف للتنظيم النسوى فى اطار بناء هيكله فى داخل وخارج السودان ، وخصوصا فى المناطق المحررة فى جنوب النيل الازرق وشرق السودان ، والتى كانت نتيجتها متميزة فى ربط التنظيم النسوى الوليد بالقواعد النسوية فى مناطق كانت مهملة بتاتا من قبل بقية مكونات الحركة النسوية السودانية .

من الجهة الاخرى فان هذه العلاقة تبدو ندية الى حد كبير ، حيث اضاف التحالف النسوى الى قوات التحالف وجناحها السياسى بعدا اجتماعيا جديدا ، ما كان سيتوفر لها لولا اسهام التحالف النسوى . ان الواقع العملى يبرهن ان التحالف النسوى هو الذى يغذى حركة التحالف السياسية بمفاهيمه النظرية واطروحاته فى مجال قضايا النوع والمراة والطفل ، وفى جملة من القضايا الاجتماعية والسياسية الاخرى . ان التنظيم النسوى هنا هو الذى يخلق الاطر الفكرية والبرامجية ، والتى ما تلبث ان تنتقل الى التنظيم السياسى وتتعمم داخله ، وفى هذا قلب للعلاقة القديمة ، والتى كانت فيها قيادة الحزب السياسى (الرجالية فى المقام الاول) هى التى تضع استراتيجية ومفاهيم التنظيم النسوى المرتبط بها ، كما تبدى فى تجربة التنظيمات النسوية المرتبطة بحزب الامة والحزب الشيوعى والحركة الاصولية .

(يشكل المثال لهذه العلاقة الايجابية والندية فى ان مؤتمر التحالف الوطنى / قوات التحالف الاول فى 1995 قد اجاز بالاجماع ورقة التحالف النسوى المقدمة الى المؤتمر ، وتبناها ضمن قراراته ، كما فى دعم وتبنى قيادة التحالف الوطنى و قوات التحالف لكل مطالب التحالف النسوى المتعلقة بشطب المادة 5 من ميثاق التجمع ، وغيرها من القضايا مثار الخلاف فى التجمع ، كما ورد فى شهادة ندى على (النساء السودانيات والسياسة) وفى تقرير امل قرنى عن الصراع حول قضايا المراة فى مؤتمر التجمع الثانى – مصوع 2000، كما فى تبنى مؤتمر التحالف الثانى فى يوليو 2001 لقرار تمثيل المراة بنسبة 30% على الاقل ، فى كل مؤسسات التنظيم القيادية والقاعدية)

فى اطار انفتاح التحالف النسوى وسعيه الى التحول الى تنظيم جماهيرى ، وتوجه التحالف الوطنى / قوات التحالف السودانية لبناء حزب جماهيرى ، فان هناك اتجاه سائد بان ينفتح التحالف النسوى ليضم عناصر اكثر ليست هى عضوات فى او مؤيدات معلنات لحركة التحالف . ان هذه الخطوة ستدعم دون شك من جماهيرية التنظيم ، ولكنها ستجلب من جديد مشاكل العلاقة والانتماء التى عانى منها الاتحاد النسائى من قبل ، ولن يغير من هذا اعلان عضوات التحالف النسوى بان علاقتهم الاستراتيجية مع حركة التحالف السياسية ستكون معلنة للعضوية الجديدة ، اذا لم يتم معالجة قضية العلاقة بين التنظيم النسوى والحركة السياسية بصورة جذرية ، فاعلة ومؤسسية .

التوجهات الفكرية والرؤى الجديدة :

اعتقد ان اهم ما اتى به التحالف النسوى الى تجربة الحركة النسوية السودانية، هو الاطار الفكرى النسوى الجديد، والخارج من تقليدية الحركات النسوية الاصلاحية ، والمتجرد فى نفس الوقت من دوغماتية الحركات النسوية العقيدية ، وخصوصا اليسارية منها ، فى اطار خلق منظومة نسوية جديدة فى اطار الفكر والتنظيم .

تاتى اهم قواعد هذه المنظومة فكرة التقوية او التمكين (empowerment) ، والتى تعنى ليس اكتساب مؤسسات الدولة الى تحقيق مطالب المراة ، وليس الانكفاء على مطالب تفصيلية بعينها ، كمحو الامية او محاربة الخفاض ، وانما الى تقوية ملكات ومقدرات المراة السودانية ، بحيث تتمكن من تحقيق مطالبها بقدراتها الذانية ، واجبار المؤسسات بذلك على التعامل مع واقع جديد وامراة جديدة . ان تحقيق مطالب المراة فى اطار هذا المفهوم لا يتم دون رفع قدرات المراة فى جميع المجالات ، التعليمية والانتاجية والسياسية والاجتماعية ، وذلك بتفعيل مبادرات نسوية فى المقام الاول ، وتغيير نطرة المراة الى نفسها والى قدراتها ، ورفع هه القدرات باستمرار .

فى اطار هذه النظرة ، ياتى تركيز التحالف النسوى على رفع المهارات لعضويته ولمجمل جماهير النساء ، بدءا من حملات محو الامية ، وتنظيم النشاطات الانتاجية ، ورفع الوعى الصحى والمهنى للمراة ، وانتهاءا بمهارات التفاوض ، واكتساب الموارد ، والعمل التنظيمى والمهارات القيادية . ان التحالف النسوى هنا يعطى اهمية فائقة للمبادرات النسوية المستقلة ، ويحاول ان يدعمها بكل الامكانيات، وقبل كل شى باتاحة الفرصة لها لاكتساب قدرات نظرية وقيادية ارفع لها .

هذا يؤدى فى المجال التنظيمى الى ترسيخ فكرة التشبيك ، وهى خلق منظومات متعددة لعمل المراة ونشاطها ، بدءا من اصغر المستويات ، وربطها افقيا وراسيا فى حلقات اوسع ، محلية ووطنية واقليمية وعالمية ، بما يؤدى الى استغلال كل القدرات المتوفرة باقصى مدى وباعلى درجة من التنسيق . ان هذه الشبكات يمكن ان تكون انتاجية بحته ، او تعليمية ، او سياسية ، او مطلبية ، الا انها ترتبط ببعضها فى المحصلة الاخيرة . ان هذا المفهوم يتجاوز الرؤية القديمة ، والتى حصرت تنظيم المراة اما فى اشكال اصلاحية او خيرية ، او فى اشكال سياسية ، تاركة مساحات واسعة من نشاطات المراة الانتاجية والاجتماعية والتربوية خارج مجال العمل الجماعى والتنظيمى .

اما فى مجال تقنين حقوق المراة دستوريا ، والتى ينظر لها التحالف النسوى كمطلب سياسى جوهرى لا تستوى الدولة الديمقراطية دونه ، فنجد التحالف النسوى الاكثر جذرية فى تقنين مساواة المراة والرجل امام القانون . وفى رفضه لمختلف الذرائع القانونية والالتفاف على هذا المبدا بذرائع ثقافية او دينية مزعومة ، حيث ان الثقافة ليست معطى ثابتا لا يتغير ، وانما هى حركية وقابلة للتطور ، فى اطار التغييرات الاجتماعية التى تحكمها . ان دعوة التحالف النسوى لتبنى قانون مدنى ديمقراطى يقنن حقوق المراة والطفل ، ومرتبط بالمواثيق الاقليمية والعالمية التى تقنن حقوق المراة ، وتمنع التميز ضدها ، يجعله يقف فى مقدمة القوى النسوية التى تدافع عن مدنية الدولة والدستور ولا تقبل اى شكل من اشكال الابتزواز باسم الثقافة السائدة او الدين او الاعراف ، لتبرير التميز ضد المراة واعتقال امكانياتها .

من المهم هنا الاشارة الى ان التحالف النسوى ، يسعى فوق الاعتماد على الارث النضالى الايجابى للحركة النسوية السودانية ، الى التعلم من تجارب الحركة النسوية الافريقية ، والحركة النسوية فى البلدان النامية عموما ، والحركة النسوية العالمية ، طامحا من خلال هذه التجارب والارث الى " تاسيس نظرة نسوية تنطلق من احتياجاتنا ، وتنبنى على الظروف المحددة فى بلادنا "

فى مسار هذا التوجه فان التحالف النسوى يحاول وضع اطر نظرية وعملية لمعالجة قضايا اهملتها الحركة النسوية السودانية التقليدية ، مثل حقوق الطفل وتقنينها (راجع وثيقة حقوق الطفل السودانى علينا والعدد الخاص من التاية عن الاطفال)، قضايا المراة العاملة وصورة المراة عن ذاتها (دراسة ندى مصطفى : 5 نساء من عطبرة) ، قضايا المراة

اللاجئة والمهجرة (البند الثالث فى قائمة اهداف التحالف النسوى الاحدى عشر) ، الاسترقاق والممارسات الشبيهة بالعبودية (راجع دراسة لورا بينى : الابعاد القانونية والاخلاقية لقضية الرق فى السودان) ، انتهاك حقوق المراة وتهميشها فى الخطاب التقليدى السائد والصورة السلبية للمراة فى المناهج التعليمية وفى ادوات الاعلام (راجع دراسة ندى مصطفى عن صورة المراة فى المناهج الدراسية السودانية) ، زواج القصر ، العنف فى الاسرة ، انتهاك جسد المراة بالختان والاغتصاب خارج المؤسسة الزوجية وفى داخلها (راجع مساهمة التحالف النسوى فى مؤتمر بكين عن المراة) ، تهميش المراة فى الحركات والتنظيمات السياسية والمطلبية المشتركة (راجع رسالة الدكتوراة لندى مصطفى عن النساء والتجمع الوطنى الديمقراطى) ، الخ الخ من قضايا النوع والمراة .

قضايا التنظيم والقيادة :

فى موازاة الاطر الفكرية الجديدة ، فان التحالف النسوى يحاول بناء اطر تنظيمية حديثة ، تبدا من تحديد طبيعة التنظيم ، والى اشكال عمله وهياكله ، والطابع الجماعى للقيادة فيه ، وتمثيلية العضوية فيه ، فى تماهى مع التجارب الايجابية للحركة النسوية ، ولتجاوز سلبيات الحركة النسوية السابقة ، وتمتين الطابع الديمقراطى الواسع للتنظيم .

من جهة طبيعة التنظيم فنجد ان التحالف النسوى يصف نفسه بانه " مجموعة تضامن نسوية ، اسست بهدف استعادة الديمقراطية وتقوية النساء السودانيات من اجل سودان جديد ". ان هذه الطبيعة تخرج بالتحالف النسوى عن ان يكون مجرد الجناح النسوى لحركة سياسية ما ، الى كونه تنظيم نسوى مستقل ، ذو اهداف سياسية (اعادة تاسيس الديمقراطية) واجتماعية (تقوية النساء السودانيات) واستراتيجية (بناء السودان الجديد) . وبهذا فهو يخرج عن الطابع الخيرى والاصلاحى (جمعيات ربات البيوت الخ) والجزئى القئوى (جمعية محاربة الخفاض الفرعونى) والطابع الحزبى (امانة المراة فى حزب ما) ، الى اطر اكثر انفتاحا وتعددا وشمولية .

من الجهة الاخرى فنجد ان بنية التحالف النسوى هى بنية لا مركزية ، وغير هرمية ، ففروع التحالف النسوى الرئيسية تعمل بصورة مستقلة عن بعضها البعض فى الداخل ، وفى المناطق المحررة ، وفى بلدان المهجر . وتتكون قيادة التنظيم من مجموع قيادة هذه الفروع ، وليس من قيادة مركزية عليا ما ، او قيادة فردية زعامية . ان القيادة هنا تقوم بمهام التنسيق وتبادل التجارب والدعم المتبادل ، اكثر منها قيادة تنفيذية للعمل اليومى . ان هذه الواقعة تثبتها قضية تحرير المجلة الناطقة باسم التحالف النسوى (التاية) ، والتى يصدر كل عدد منها بمبادرة فرع مختلف من فروع التحالف النسوى (الخرطوم ، اسمرا ، القاهرة ، لندن الخ) ، ولا توجد لها هيئة تحرير ثابتة . ان نفس الشى يقال عن بقية النشاطات الاخرى او التمثيل الاقليمى والعالمى للتحالف النسوى ، والذى يعتمد على مبادرات فروع معينة وعضوات متغيرات ، اكثر من كونه تمثيل مربوط بالقيادة او اعضاء محددين فيها . ان هذا الشكل للعمل يوسع من مفهوم القيادة ولا يربطها بشخص او مجموعة اشخاص ، فى نفس الوقت الذى يعطى مجالا واسعا للمبادرة المستقلة لفروع التنظيم ومكاتبه المختلفة .

من جهة ثالثة فان التحالف النسوى قد تجاوز الطابع الاقليمى والثقافى الاحادى للحركات النسوية السودانية السابقة (ما بين حركات ذات طابع شمالى او جنوبى ، ذات اغلبية مسلمة او غير مسلمة) ، الى مقاربة واقع التعددية الثقافية والاثنية والجغرافية فى السودان ، فنجد وسط عضويته عناصر من جنوب السودان ومن شماله ووسطه ، من جنوب

النيل الازرق وجبال النوبة ، من وسط المسلمات والمسيحيات والقبطيات . ان واقع ان رئيسة الاتحاد تنحدر من جنوب السودان (الاستاذة سارة كليتو ريال) ، ووجود عناصر قيادية من المناطق المهمشة (المناضلة الراحلة زهرة عبد القادر من منطقة مينزا بجنوب النيل الازرق) ، قد اضفى على التحالف النسوى طابعا وطنيا وتمثيليا واسعا ، وان كان لا يزال يحتاج الى الترسيخ . ان هذا الطابع التمثيلى فى تقديرنا لا يستند على التوازن الاقليمى المصطنع ، بقدر ما يستند على حيوية الافكار الجديدة التى اتى بها التنظيم ، وعلى تجاوز عضواته المؤسسات للاطر الاقليمية والثقافية الضيقة ، بتاثير من العامل الاكاديمى، واتاحته لاطار معرفى انسانى اوسع ، وظروف الهجرة والاختلاط الذى تم بها ، وتبنى افكار تحاول معالجة الازمة السودانية وظروف التهميش من جذورها (فكرة تقوية النساء وتمكين النساء السودانيات ومشروع السودان الجديد).

كما ان التحالف النسوى والذى بدا كحركة لبعض الشابات ذوات التعليم العالى ، ما لبث ان طور طبيعته الى تنظيم شعبى، بانضمام عناصر شعبية عديدة الى صفوفه ، وخصوصا فى المناطق المحررة فى جنوب النيل الازرق وشرق السودان (المناطق جنوب طوكر) ، حيث تحول التحالف النسوى هناك الى تنظيم جماهيرى بحق ، واخرج الى النور تطلعات ومهارات و امكانيات نساء تلك المناطق ، رغم الطابع التقليدى والابوى للعلاقات الاجتماعية السائدة . اننا لا نملك معلومات دقيقة عن تطور عمل التحالف النسوى فى المناطق الواقعة تحت سيطرة النظام الحاكم ، ولكننا نعلم ان اطره وسط الطالبات والخريجات تتسع باستمرار ، ونتمنى ان يصاحب هذا التطور انتشار مماثل وسط القطاعات الشعبية من النساء العاملات او النساء العاملات فى بيوتهن (ربات البيوت والحرفيات والتاجرات الصغيرات) . اننا نعتقد ان تحول التحالف النسوى الى تنظيم شعبى ، وانتشاره وسط النساء العاملات وفى المناطق المهمشة ، وتدريب مهارات قيادية وعناصر قيادية من وسطهن ، لهو السبيل الوحيد للخروج من ازمة الحركات النسائية التقدمية السابقة ، والتى ظلت محصورة وسط النساء المتعلمات ، وفشلت فى الوصول الى عموم النساء ، واللائى ظللن تحت تاثير الافكار التقليدية السائدة ، او كسبتهن الى صفوفها الحركة الاصولية .

جدير بالاشادة كذلك ، فتح التحالف النسوى ابوابه امام العضوية المساندة ، وهى عضوية مفتوحة امام كل العناصر من الرجال والنساء ، من السودانيين والاجانب ، الذين يرغبوا فى دعم نضال المراة السوانية . ان هذا الانفتاح يمضى فى تناغم مع انفتاح التحالف النسوى على الحركة النسوية العالمية ، وعلى الحركة الثورية السودانية والعالمية ، وبهذا فانه قد تجاوز الطابع الفئوى الضيق للحركة النسائية (بفتح مجال العضوية المساندة امام الرجال) ، والطابع المحلى الضيق لها (بفتح الباب لغير السودانيات والسودانيين) ، الامر الذى يعطيه امكانيات جديدة ودعم اوسع وسط الفئات السابقة المذكورة . ان كاتب هذا المقال يعتز بعضويته المساندة فى صفوف التحالف النسوى السودانى ، وبكلمة الشكر التى وجهتها رئيسة التحالف النسوى له ولعناصر مساندة اخرى من الرجال السودانيين ، مثل الاستاذ خالد كودى والعميد عبد العزيز خالد (وعادل عبد العاطي) وآخرين .

النشاطات واشكال العمل :

تتوزع نشاطات التحالف النسوى لتحقيق اهدافه ورؤاه ، على اطر متعددة ، من بينها النشر والاعلام ، تنظيم الدورات التعليمية والسمنارات والتثقيف ، الاحتفالات الجماهيرية المفتوحة والنشاطات فى المناسبات ذات الصلة ، جمع الموارد المالية والعينية ، تشبيك النساء فى اطار التحالف النسوى وفى غيره من الاطر ، التشبيك والتبادل مع غيره من المنظمات النسوية السودانية والاقليمية والعالمية ، تمثيل النساء السودانيات فى المحافل العالمية ، الضغط من اجل تمثيل اوسع للنساء السودانيات فى الحركة السياسية والحياة العامة السودانية ، المشاركة فى النشاط المعارض المسلح فى شرق السودان وجنوب النيل الازرق ، وغيرها من النشاطات .

فاما فى مجال النشر والاعلام ، فتاتى نشرة التاية التى تصدر بالعربية – ومرات نادرة بالانجليزية – فى مقدمة ادوات دعاية التنظيم ، وهى نشرة ذات محتوى متميز ، وان كان ينقصها التصميم المحترف الثابت ، كما انها نشرة لا دورية ، وليس لها قنوات محددة للنشر والتوزيع ، ولا تزال مجهولة عند اغلب النساء السودانيات فى الداخل والخارج . كما اصدر التنظيم كتيب باسم "قضايا سودانية فى بكين " ، هو بمثابة تقرير عن مؤتمر بكين للنساء فى 1995 ، وكذلك ورقة عن التحالف النسوى بالانجليزية والعربية ، كما تساهم عضواته فى تحرير نشرة عازة التى تصدر فى اسمرا ، كما لهن مقالات ومساهمات فى مجلات وجرائد متفرقة . كما تصدر فروع التنظيم وقيادته بيانات ونداءات فى مناسبات مختلفة ، توزع التى تصدر منها بالداخل على نطلق جيد بالعاصمة وفى جراة عالية ، كما للتنظيم صفحة بالشبكة العالمية ، www.swa95.org ، وان كانت تحتاج الى التطوير والتجديد . الا ان النجاح الاكبر فى نظرنا هو فى اعداد برامج عن المراة مثل "امراة وطن " و " الواضح ما فاضح " ، التى تناقش العديد من قضايا المراة فى لغة مبسطة ، و تبث عبر اذاعة صوت الحرية والتجديد الناطقة بلسان حركة التحالف .

اما فى مجال التعليم والتثقيف ، فقد حقق التحالف النسوى نجاحات مقدرة ، فى المناطق الواقعة خارج سيطرة النظام ، فى شرق السودان وجنوب النيل الازرق ، وخصوصا فى مجال رفع الوعى الصحى ومحو الامية ، ونظمت دورات متعددة فى هذا المجال بالتضامن مع منظمة السودان للرعاية الاجتماعية ومنظمة البجة للاغاثة ، وبدعم مباشر من الادارة المدنية فى تلك المناطق . وتحتل قضايا محو الامية الكتابية والسياسية جزءا رئيسيا فى نشاطات التحالف النسوى فى تلك المناطق ، كما ينظم التحالف النسوى بالمهجر ، وخصوصا فى القاهرة والمملكة المتحدة ودولة اريتريا ، سمنارات وندوات مختلفة عن قضايا المراة السودانية ، بالتضامن مع الجامعات ومراكز البحث ذات الصلة ، كمعهد الراسات الافريقية بالجامعة الامريكية فى مصر ، وقسم دراسيات النوع فى جامعة بمانشستر ؟. وتظل معلوماتنا محدودة عن النشاطات التعليمية للتحالف النسوى فى المناطق الواقعة تحت سيطرة النظام .

اما فى مجالات الاحتفالات الجماهيرية ، فينظم التحالف النسوى العديد منها فى المهجر والمناطق المحررة ، ومن بينها الاحتفال السنوى بيوم المراة العالمى فى الثامن من مارس كل عام ، وتتوزع هذه الاحتفالات ما بين الندوات المفتوحة ، اقامة معارض الصور والملصقات والادبيات ، تنظيم اللقاءات الاجتماعية للنساء ، تنظيم المناشط الثقافية ، اقامة ايام للاطفال السودانيين ، الخ الخ من النشاطات ، والتى كان اخرها تنظيم يوم المراة اللاجئة والمهاجرة فى مدينة مانشستر فى نهاية اغسطس الفائت 2001.

كما اولى التحالف النسوى اهمية كبيرة للنشاطات المتعلقة بتجميع الموارد المادية والعينية ، والتى يذهب عائدها الى دعم نشاطات النسوة الراغبات فى العمل الانتاجى ، وان كن يفتقرن الى الموارد ، فى المهجر وفى داخل السودان ، والى دعم

نشاطات التحالف النسوى ، والى دعم المقاتلين فى جبهات القتال ، ودعم الجرحى واسر الشهداء والمعاقين الخ . ورغم النجاهات التى حققت فى هذا المجال ، الا انها تظل قطرة فى بحر الاحتياجات ، ويبقى هذا الواجب الاول لفروع التحالف النسوى بالخارج ، ولمجموعات التضامن والعضوات والاعضاء الداعمات والداعمين للتنظيم من السودانيين وغيرهم .

اما فى مجال التشبيك ، فقد استطاع التحالف النسوى بناء فروع له فى اغلب المدن السودانية ، وفى العديد من المناطق الريفية ، وان كان كل ذلك يتم فى حدود ضيقة وفى اطار السرية بتاثير قمع النظام . كما اسس التحالف النسوى وحدات قوية له فى المناطق المحررة ، ومكاتب له بالخارج ، فى كل من اسمرا والقاهرة والولايات المتحدة والمملكة المتحدة وهولندا والسويد وغيرها ، كما استطاع تحفيز العديد من الرجال السودانيين والمتعاطفات والمتعاطفين من غير السودانيات والسودانيين للانضمام الى صفوف العضوية المساندة (وان كانت هذه المجموعات لا يزال ينقصها التاطير) . كما حقق نجاحات معتبرة فى مجال التنسيق مع المنظمات السودانية النسوية الاخرى ، وخصوصا فى اسمرا والقاهرة ، واقام علاقات واسعة مع العديد من المنظمات النسوية الافريقية (فى مصر ، اريتريا ، جنوب افريقيا ، اوغندا ، الخ) والعديد من الحركات النسوية فى العالم .

هذا يؤدى الى قضايا الاتصالات العالمية وتمثيل النساء السودانيات بالخارج . ورغم ان التحالف النسوى لا يدعى تمثيل كل النساء السودانيات ، وانما اراء عضويته فقط ، الا انه فى مناسبات مختلفة كان التنظيم الوحيد الممثل للمراة السودانية فالمنابر الاقليمية والعالمية . ان مساهمة التحالف النسوى فى مؤتمر بكين فى العام 1995 ، وفى العديد من المؤتمرات والسمنارات العالمية ، قد فتحت له المجال لعكس قضايا المراة السودانية فى هذه المنابر ، والتعرف على تجارب الحركات النسوية فى العالم .

كما اولى التحالف النسوى اهتماما كبيرا لقضية تمثيل النساء السودانيات فى مؤسسات الحركة السياسية السودانية ، وخاض مع العديد من المنظمات النسوية وداعمى قضية المراة السوداتية نضالا واسعا للتمثيل المؤسسى للمراة فى تنظيم المعارضة السودانية الاراس ، التجمع الوطنى السودانى ، ولالغاء المادة 5 من برامج التجمع ، والتى تقيد من حقوق المراة ولا تعترف كاملا بالمواثيق الدولية لمنع كل اشمال التمييز ضد المراة . وان كان هذا النضال داخل التجمع فقد فشل ، نتيجة لتعنت الاحزاب التقليدية (الامة والاتحادى الديمقراطى) ، وخور العديد من الاحزاب الاخرى عن الدفاع عن قضية المراة ، الامر الذى كشفت عنه مداولات الموتمر الثانى للتجمع بمصوع 2000 . الا ان التحالف النسيوى قد نجح فى جبهة اخرى ، حيث اشترط التحالف الوطنى / قوات التحالف فى نظامه الاساسى الجديد ، ونتيجة لقرارات مؤتمره الثانى ، شغل 30% على الاقل من المقاعد فى كل هيئاته للمراة ، فى سابقة هى الاولى فى تاريخ الحركات السياسية السودانية ، وان كانت لا تزال تحتاج الى التاكيد والاسناد .

كما طرق التحالف النسوى مجالا جديدا كل الجدة ، حين حرض عضواته وجماهير النساء للانضمام الى صفوف الانتفاضة الشعبية المسلحة ، وتخرجت العديد من عضوات التنظيم والمتعاطفات معه من دورات عسكرية فى صفوف قوات التحالف السودانية . ان معظم هؤلاء النساء يعملن فى الخطوط الخلفية ، وفى المجال الصحى والاسناد ، الا انها تبقى سابقة متفردة فى الاقاليم الشمالية السودانية ، خصوصا فى المناطق المهمشة ، حيث يفترض ان تعشعش العلاقات القديمة

. وكم كان مدهشا ان آباء وازواج هؤلاء المقاتلات قد ايدوا قرارات بناتهن وزوجاتهن ، وحضروا حفلات تخريجهن ، فى ظاهرة تشكل ثورة حقيقية فى العلاقات الاجتماعية السائدة فى السودان .

التحالف النسوى وازمة الحركة النسوية :

فى الفقرات السابقة حاولنا انجاز رصد سريع لتجربة التحالف النسوى السودانى خلال ال6 سنوات الفائتة ، وقد كان رصدنا اقرب للتوثيق منه للتحليل والدراسة . اننا نعتقد ان مستقبل التحالف النسوى مفتوح هلى كل الاحتمالات ، فيمكن ان يكون فيه الاجابة على ازمة الحركة النسوية السودانية ، واستشراف افاق جديدة لتجاوزها ، او يمكن ان يكون فيه استمرارها وان باشكال اخرى .

اننا نؤمن بان الحركة النسوية السودانية تعانى من ازمة مستحكمة ، وهى ازمة نهج واشكال عمل وقيادات ، وهى فى جزء منها مسئولية القيادات النسائية ، والهرم الفكرى والجسمانى الذى اصابها ، وفى جزء آخر منها هى انعكاس لازمة الحياة السياسية والاجتماعية السودانية ، وطريق التطور المازوم الذى طرقناه منذ الاستقلال ، والذى ادى الى تهميش قطاعات واسعة من مواطنى البلاد ، والى التهميش المذدوج للمراة .

كما ان عشعشة المفاهيم الذكورية فى مفاهيم وخطاب القوى السياسية السودانية وممارساتها ، تظل عقبة اساسية امام تطور اى مدرسة وحركة نسوية سودانية جديدة . ان سيطرة السياسى على الحياة العامة السودانية ذات جوانب خطيرة ، ومن اهمها انه لا يمكن لحركة اجتماعية او مجموعة ضغط ان تنمو دون ممارسة سياسية ما وارتباط بمشروع سياسى ، الامر الذى ادى ويؤدى الى ضياع تاثير العديد من المنظمات الواعدة والمستقلة ، لكن المفتقرة الى الدعم السياسى . وهنا تكمن القيمة الايجابية – او السلبية – لعلاقة التحالفالنسوى بالتحالف الوطنى السودانى .

ان هدف المقال الحالى ليس هو مناقشة واقع الفكر والحركة النسوية فى السودان ، فذا موضوع يطول، ولكننا نؤمن ان التحالف النسوى مواجه بدراسة تجربته وتجارب الحركات النسوية السودانية السابقة والموازية له ، اذا ما اراد لتجربته تحقيق القدر المطلوب من الجماهيرية والفاعلية ، وصولا الى تقوية وتمكين المراة السودانية .

ان قائدات التحالف النسوى يسردن عدة عقبات تواجه التنظيم ، منها قلة العضوية ، وقلة عدد النساء فى اطر التحالف الوطنى / قوات التحالف السودانية ، قلة الامكانيات المادية التى تسمح له بالانطلاق لتنفيذ برامجه ، وضعف الاتصال بين رئاسة التنظيم وفروعه ، ومع المراة فى الداخل وفى المناطق المحررة ، اضافة الى جملة من العوامل التقنية الاخرى (لقاء مع وداد صديق – نشرة فجر الثورة ، العدد 46-مارس 2001) .

اننا نعتقد ان تجربة التحالف النسوى ، سواء من حيث الفكر ، او الاطر القيادية ، او اشكال العمل تجربة متفردة واعدة. الا انها تحتاج الى المراجعة المستمرة وسد النواقص ، وخصوصا فى مجال نقل التوجهات النظرية الجديدة الى برامج فعالة وتطبيقية ، و الوصول الى القاعدة الجماهيرية الواسعة من النساء ، و المعالجة الجادة لقضية الموارد المالية ، وتاسيس النشاط التنظيمى والدعائى على اسس محترفة ومؤسسة ، وتنظيم العلاقة مع الحركة السياسية للتحالف ، وتطوير الخطاب

الجديد للتحالف النسوى بحيث يطغى على الخطاب التقليدى الطائفى منه او العقيدى ، والذى فشل فى كسب المراة السودانية وتفجير امكانياتها .

اننا نؤمن بان التحالف النسوى زاخر بامكانيات ضخمة ، وقادر اذا ما اراد ،على تحقيق الاهداف الجادة التى طرحها على نفسه ، والى التحول الى التنظيم الطليعى والاراس للمراة السودانية. فى انتظار تحقيق كل ذلك ، نواصل النضال مع رفيقات ورفاق التاية ابو عاقلة ، زهرة عبد القادر، ونتمنى لهم ولنا التوفيق فى القادم من سنين ، والاتى من مهام .

سبتمبر 2001

تجمع الميرغني وقرنق والتجاني الطيب أعدى اعداء المراة السودانية*

(قراءة في تقرير عن مؤتمر التجمع الثاني والموقف من قضايا المراة السودانية)

مقدمة:

ان تجمع الميرغني وقرنق والتجاني الطيب ، ومن لف لفهم ، والذي يسمي نفسه زورا وكذبا بالتجمع الوطني الديمقراطي ، هو من اعدي اعداء المراة السودانية ، ولا يفوقه في عدائه الا نظام الانقاذ، الذي مع ذلك لا يوارب عدائه للمراة. ولكن التجمع يعادي المراة السودانية وهو يزعم الدفاع عنها، ويخلط السم في الدسم ، ويكيل لها الصفعات المتلاحقة عبر 13 عاما، هي عمر وجوده الكئيب ، ونشاطه المتهالك.

اننا في هذا المقال ، سنقوم بفضح هذا التنظيم الذكوري المتخلف والمعادي للمراة السودانية بامتياز ، بناءاً على تقرير قدمته احدة مندوبات مؤتمر التجمع ذاك . وندعو ناشطات الحركة النسوية الجديدة ، ومؤيدي المراة السودانية من شرفاء الرجال ، للمساهمة في حملة الفضح هذه ، حتي نسجل موقفا للتاريخ ، ونكف عن تزييف الحقائق ، والانكسار امام المتسلطين من ممثلي اسؤا الممارسات الذكورية في تاريخ الحركة السياسية السودانية .

التقرير مثار البحث ، كتبته الاستاذة أمل قرني ، احدي ممثلات التحالف الوطني السوداني للمؤتمر وهو بعنوان (Women Issues at the Second Congress of the National Democratic Alliance,Massawa 9-13 September 2000) وهو يتكون من 15 صفحة تحكي عما تم في المؤتمر . وقد رفع الي اعضاء التحالف النسوي السوداني والتحالف الوطني السوداني ممن لم يحضروا المؤتمر.

الحضور الضعيف للمرأة :

يبتدئ التقرير بمسالة الحضور الضعيف للمراة في قوام المؤتمر ، والذي كان - وللعجب - ، مصدر فخر المجتمعين ، حيث قالوا انه كان اكبر حضور نسائي في تاريخ التجمع ! كان لكل حزب من المشاركين في المؤتمر ثمانية ممثلين ، وقد طلب منهم ان يكون في كل وفد امراة واحدة علي الاقل ، اي 1/ 8 من الحضور ، ولكن العدد في النهاية لم يصل حتي الي هذا الرقم المتواضع . وهنا بعض الاحزاب وممثلاتها من النساء :

- تجمع الداخل 21 عضو من بينهم 2 نساء
- التحالف الوطني السوداني 8 اعضاء من بينهم 2 نساء هم رباب (من الداخل) وأمل قرني (من الخارج)
- الحزب الاتحادي الديمقراطي 8 اعضاء من بينهم 2 هم ماجدة عوض خوجلي واخري
- التحالف الفيدرالي 8 ممثلين من بينهم امراتان
- تجمع الاحزاب الافريقية السودانية 8 ممثلين من بينهم امراتان هم ماجدولين الوكو واخري
- الحزب الشيوعي 8 ممثلين من بينهم امراتان هم سعاد ابراهيم احمد وهالة عبداللطيف
- حزب البعث العربي الاشتراكي 8 ممثلين منهم امراة واحدة
- الحركة الشعبية لتحرير السودان 8 ممثلين منهم امراة واحدة هي ستونا عثمان
- القيادة الشرعية 8 ممثلين ليست بينهم امراة
- الاسود الحرة 8 ممثلين ليست بينهم امراة
- مؤتمر البجة 8 ممثلين ليست بينهم امراة
- التجمع النقابي 8 ممثلين ليس بينهم امراة - هؤلاء ادعوا ان سياستهم لا تقوم علي تقسيم العضوية الي رجال ونساء - يا سلام يا تقدميين-،
- القيادة العسكرية الموحدة 8 اعضاء ليس بينهم امراة
- الشخصيات الوطنية 8 منهم امراة واحدة هي ماجدة احمد علي
- فاطمة احمد ابراهيم كمراقب
- ابتسام عثمان من الحزب الاتحادي عملت في سكرتارية المؤتمر.

علي من يعرف جيدا في الرياضيات ان يحصي لنا عدد النساء مقارنة بعدد الرجال في المؤتمر – واذا كان الجواب يقرا من عنوانه ، فان حجم التمثيل الضعيف ، يوضح ضعف التجمع واحزابه في التعأمل مع المراة السودانية ، الامر الذي سينكشف اثناء المؤتمر في اسؤا الصور.

معاهدة التحالف النسوي بالداخل:

كان التحالف النسوي في السودان ، وهو تحالف من عدة تنظيمات نسوية ، قد اقر معاهدة مشتركة لحماية حقوق المراة ، وقعت عليها المنظمات النسائية لبعض الاحزاب ، ومن بينها الامة ، الاتحادي ، الشيوعي، البعث والاتحاد النسائي ، بينما رفض التحالف النسوي السوداني التوقيع عليها ، لانه اعتبرها ضعيفة جدا وتقليدية.

في مؤتمر التجمع ، طرحت بعض ممثلات الداخل ، وهم الاستاذة محاسن عبدالعال وممثلة البعث ، فكرة ان تتوحد النساء في المؤتمر حول هذه المعاهدة، وان يعرضوها للاجازة علي التجمع ، وان تصبح بذلك واحدة من وثائقه.

ورغم عدم وصول ممثلة التحالف النسوي من الداخل حتي ذلك الوقت ، ورغم ان التحالف النسوي لم يوقع علي المعاهدة ، الا ان ممثلة التحالف الاخري قد اعجبت بفكرة ان يكون هناك لوبي نسوي في المؤتمر ، وان يدفع لاجازة وثيقة نسوية ، ولذلك طلبت أمل قرني نص المعاهدة ، وقامت بنسخها وتوزيعها علي بقية المشاركات في المؤتمر . فماذا كان الموقف :

وقفت ماجدة عوض خوجلي من الاتحادي الديمقراطي موقف المعارضة التامة ، وزعمت ان حزبهم مختلف حول هذه المعاهدة، رغم انهم قد وقعوها بالداخل ، بينما رفضت ستونا عثمان مجرد قرائتها ونقاشها ، وذلك علي اساس ان الحركة الشعبية لها معاهدتها الخاصة ، ولم تستطع أمل اقناعها بتقديم تلك المعاهدة ايضا ، ودمج المعاهدتين ، والخروج بنص موحد تتفق عليه المشاركات ، ويقدم باسمهن الي التجمع.

في هذه الحالة ، فضلت ممثلات التحالف ترك الامر برمته ، وخصوصا انهم لم يكن من الموقات علي هذه المعاهدة ، والتركيز علي قضية معاهدة سيداو والنقطة 5 من ميثاق التجمع.

النص العربي لسيداو "يختفي":

امام الجهل الفاضح للقيادات الذكورية والنسوية لاحزاب التجمع بمعاهدة سيداو ، فقد حاولت الاستاذة أمل قرني توفيرها لهم ، وكانت بحوزتها نسخة انجليزية ، قامت بنسخها وتوزيعها علي المشاركات ، واللاتي طلب بعضهن الوثيقة باللغة العربية .

من حسن الحظ ان مكتب التحالف بمصوع كانت عنده نسخة بالعربية ، قام بتوصيلها الي أمل ، والتي ذهبت الي سكرتارية المؤتمر لتصويرها هناك التقت بشاب لطيف ، حالما عرف ما المطلوب تصويره ، سارع بتقديم خدماته انه سيقوم بكأمل عملية التصوير ، وعلي أمل الا تضيع وقتها وان تلحق بالجلسات ، وان تاتي له لاحقا لاخذ النسخ المصورة.

عندما عادت أمل لم يكن هناك لا نسخ مصورة ، ولا النسخة الاصلية ، حيث اعلن الشاب انه خرج لدقائق ، وانه ربما اخذها احد المشاركين بالغلط ، وقد بحثت عنها أمل علي كل الطاولات بل وفي صناديق القمامة ، الا ان النسخة الوحيدة من الاتفاقية بالعربية قد اختفت ، وكانها فص ملح وداب ، ولم تظهر حتي نهاية المؤتمر .

في ظل معرفتنا باهمال السودانيين ، فان الامر لا يبدو مستغربا، ولكن عندما يتضح فيما بعد ان هذا الشاب عضو في الاتحادي الديمقراطي ، وعندما نراجع الحماس الشديد الذي ابداه للقيام بعملية التصوير والنسخ ، فان الشيطان يلعب في عبنا ، ويغدو التساؤل كيف اختفت النسخة العربية الوحيدة ، ولم يعثر عليها حتي في صناديق قمامة سكرتارية المؤتمر ، وهل كان كل الامر صدفة ؟ المهم انها اختفت في لحظة حرجة.

الصراع حول سيداو:

كانت اتفاقية سيداو واحدة من القضايا المشتعلة في المؤتمر ، حيث طالبت ممثلات التحالف واخرات بان يجيز التجمع هذه الاتفاقية ، وهي اتفاقية الامم المتحدة لمنع كل اشكال التمييز ضد المراة . ما الذي تم ؟

وقفت العديد من الاحزاب ضد تبني هذه الاتفاقية ، وضد تغيير المادة 5 التي تخرق هذه الاتفاقية ، وكان من الواضح ان العديد من المعارضين والمعارضات ، لم يقراؤا هذه الاتفاقية ، بدليل ان احدي اكبر القيادات النسوية ، قالت انها ترفض الاتفاقية ، لان فيها مادة تبيح الاجهاض !!

وهذا بالطبع كذب صراح وتدحيل خطير . كما ان العديد من الدول العربية والافريقية والاسلامية ، قد اقرت هذه المعاهدة، وكانت من اخرها المملكة العربية السعودية ، فهل اقطاب التجمع واحزابه اكثر رجعية من الوهابيين؟

لقد كانت واحدة من أكثر المتعصبات ضد الاتفاقية ، الاستاذة ماجدة عوض خوجلي من الحزب الاتحادي الديمقراطي ، وفاطمة احمد ابراهيم ، كما ان العضوة الثانية من الاتحادي ورغم موافقتها في البدء ، الا انها صوتت بالضد في التصويت . كما ان ممثلات الحزب الشيوعي قد وافقن في البدء ، الا ان هالة عبدالطيف قد صوتت ضد اجازة الاتفاقية في اللجنة المخصصة.

المادة 5 من قرار التجمع حول الدين والسياسة:

كانت المادة 5 من قرار التجمع حول الدين والسياسة، التي اجازها في مؤتمر القضايا المصيرية لعام 1995، وهي الوحيدة التي يتحدث فيها التجمع عن المراة السودانية ، والتي اسقطها (أي قضايا المرأة) حتي في ميثاقه ، هي الموضوع الاكثر اثارة للجدل ، وسط القضايا المتعلقة بالمراة ، في مناقشات المؤتمر الثاني للتجمع.

تقول المادة 5 :

(يلتزم التجمع الوطني الديمقراطي بصيانة كرامة المراة السودانية، ويؤكدعلي دورها في الحركة الوطنية السودانية ، ويعترف لها بكل الحقوق والواجبات المضمنة في المواثيق والعهود الدولية ، بما لا يتعارض مع الاديان .) - المرجع : التجمع الوطني الديمقراطي ، امانة التنظيم والادارة : وثائق مؤتمر القضايا المصيرية ، ص 24 .

كانت الفقرة الاخيرة مصدرا لنقد متواصل ، من ناشطات الحركة النسوية ، واللاتي اعتبرن انها تشكل مدخلا للتراجع عن عموم المادة ، وانها تتميز بعمومية مخلة . فما هي الاتفاقات التي تتناقض مع الدين ، ومن سوف يكتشف هذا التناقض؟ والمادة في عمومها ضعيفة ولا تستجيب لمطالب المراة السودانية في ضمان عدم التميز وضمان المساواة مع الرجل علي مستوي الدستور والقانون .

لقد كانت العديد من المندوبات ضد هذه المادة عموما ، والفقرة الاخيرة منها خصوصا ، حيث اعتبرنها بحق مدخلا يمكن ان تمارس منه السلطة التشريعية او التنفيذية القادمة التعدي علي حقوق المراة ، وخصوصا انها تتناقض مع اتفاقات مؤتمر القضايا المصيرية ، والذي اقام الدولة علي اساس المواطنة ، ووصي بفصل الدين عن السياسة. كما ان الدين كعقيدة يشمل الرجال والنساء، فلماذا ادخلت هذه الفقرة عند الحديث عن حقوق النساء فقط ، ولم تأت عندما كان الحديث عن الحقوق العامة ، الا اذا كان الغرض منها استخدامها لاحقا ضد مطالب المراة السودانية؟

لقد قدمت مندوبات التحالف الصيغة التالية لكيما تبدل الفقرة 5 :

(ان التجمع الوطني الديمقراطي يعترف بالدور النشط والايجابي للمراة السودانية ، في التاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للبلاد، كما يلزم نفسه بتمكين النساء من ممارسة حقوقهم الكأملة غير المنقوصة ، النابعة من حقوق وواجبات المواطنة ، وكما جاء بالمعاهدات والاتفاقات الدولية، ومن بينها المعاهدة من اجل الغاء كافة اشكال التميز تجاه المراة – سيداو –)

قدمت هذه الصيغة الي كافة المندوبات ، واللاتي استقبلنها بالترحيب ، واعتبرنها افضل من الصيغة القديمة للمادة 5 ، وكان من المؤيدات اثنتان من عضوات الاتحادي الديمقراطي ، ومحمد المعتصم حاكم ، احد قياديي ذلك الحزب ، ومعظم المندوبات الاخريات.

الا انه كالعادة ، فقد وقفت ضدها ممثلة الحزب الاتحادي الديمقراطي ماجدة عوض خوجلي ، والتي استطاعت ان تغير من مواقف زميلاتها ، وان تضغط علي النساء الاخريات والرجال المؤيدين للتغيير، وبدأ واضحا ان القائدة الحقيقية هي ماجدة عوض خوجلي ، وان وزنها الثقيل ياتي من كونها تعبر عن خط الميرغني ، وانها تحظي بتاييده المطلق ، والذي كان واضحا في كل تصرفاتها وممارساتها.

مقاومة سلبية:

انه من الغريب ، ان عنصرا واحدا ، يمكن ان يكون له هذا الوزن الثقيل ، ويستطيع ان يغير توازن القوي ، وان يبدل موقف المشاركات من التاييد الي الرفض ، وبالعكس.

ان الاجابة تاتي في ان المشاركات قد كن من احزاب مختلفة ، كما ان قدراتهن القيادية كانت ضعيفة ، والاهتمام بالتشبيك وسطهن ضعيفا . كما ان احزابهن لم تكن لها مواقف واضحة من القضايا المطروحة ، وان كانت فقد كانت في معظمها مواقف محافظة ، كما عبرت عنها مندوبة الاتحادي الديمقراطي ، والتي اشار العديدون الي انها كانت تنطق بلسان الميرغني.

من الجهة الاخري فان الاحزاب والتنظيمات التي لم تكن في وسط مندوبيها عناصر نسوية، مثل القيادة الشرعية ومؤتمر البجة والاسود الحرة ، وحتي التجمع النقابي – التقدمي الذي لا ينظر الي اعضاؤه كرجال ونساء - ، قد بدت غير مهتمة اطلاقا بهذه النقاشات ، والتي عدتها مواضيع انصرافية لا ترقي لمستوي السياسة الكبيرة التي يناقشوها . كما ان بعضهم كان يخجل ان يتدخل في نقاشات "النسوان" ، ويتهرب من تحديد موقف يجعله يدخل في خلافات النسوان ، الامر الذي يوضح الاثر المدمر لغياب العنصر النسوي وسط مناديب تلك القوي، وتعأملها الاستعلائي مع قضية المراة واعتبارها من الهامشيات.

ومع ان مؤتمرالبجة والاسود الحرة هي تنظيمات ثورية ، فان موقفها لم يكن واضحا، ويبدو ان ذلك كان راجعا لانعدام وجود مواقف براجمية واضحة لهم من الامر . اما القيادة الشرعية فقد كانت ذات موقف محافظ ، وكذلك التجمع النقابي – التقدمي في ظاهره – والذي لم يزعج مناديبه انفسهم اطلاقا بهذه المواضيع (النسوانية) الانصرافية .

من ناحية ثالثة ، فان بعض القياديات المخضرمات قد كن يعتبرن كل الموضوع فرعيا ، ويعتقدن ان ظروف المراة السودانية تحتاج الي خطوات عاجلة ، وليس الي نقاش وصراع حول المادة 5 ، كان هذا موقف ممثلة الحركة ، وموقف فاطمة احمد ابراهيم ، كما كان موقف اغلب مندوبات الداخل ، وعلي راسهن محاسن عبدالعال، اللاتي كن مشغولات تماما بمعاهدة التجمع النسوي بالداخل ، ومحاولة الحصول علي تاييد لها ، ولذلك كن حريصات علي عدم اغضاب الاتحادي الديمقراطي ، كما ان بعض القياديات قد عزلن نفسهن تماما عن كل هذا النقاش، منشغلين مع الرجال الاخرين بمواضيع السياسة الكبيرة ، مما سيتم توضيحه لاحقا.

كانت الاحزاب ، المنتمية اليها المندوبات في اغلبهن ، تميل الي عدم اغضاب الاتحادي ، وخصوصا بعد خروج الامة من التجمع ، وتحول الميرغني الي مولاهم ، ورمز السودان الجديد كما زعموا ، ولذلك كان التوجه نحو الاحتفاظ به وبحزبه باي ثمن في صفوف التجمع.

في مثل هذه الحالة فقد كانت المقاومة جد ضعيفة تجاه الخط الرجعي والمستفز الذي عبرت عنه ماجدة عوض خوجلي من الاتحادي الديمقراطي ، وانتهي الامر الي ان تصبح اغلبية المندوبات من مناصرات المادة رقم 5 ، وان تكون هناك ثلاثة مندوبات مصرات علي تغييرها ، هم أمل ورباب من التحالف ، وماجدة احمد علي من الشخصيات الوطنية.

مواضيع المراة في لجان المؤتمر :

كانت هناك اربعة لجان عمل رئيسية في مؤتمر التجمع الثاني، وهي لجنة الحل السياسي الشأمل ، لجنة الفترة الانتقالية ، لجنة القضايا الانانية والاراضي الحررة ، ولجنة هيكلة التجمع .

من الملاحظ انه لم تكن هناك لجنة لقضايا المراة، ولكن بعض اللجان ناقشت وضعها، مثل لجنة المناطق المحررة ، وكذلك تم النقاش في لجنة المرحلة الانتقالية والتي كان من عضويتها ممثلة التحالف أمل قرني ، ممثلة للاتحادي الديمقراطي من الداخل ، والاستاذ طه جربوع.

في هذه اللجنة تم رفع قضية المادة 6 واجازة سيداو ، وكان موقف عضو الاتحادي مؤيدا لاطروحات أمل وجربوع ، وان دون حماس ، وبعد النقاش تم رفع الامر لمجموعة الصياغة ، والتي كانت من اعضائها أمل قرني وجربوع ، واللذان رفعا صيغة قرار في هذين الموضوعين.

رفضت اغلبية اعضاء اللجنة الامر ، باعتبار ان هذه قضايا خلافية ، ويجب ان تترك للجلسة العامة ، وان لا ترفع بها توصية من اللجنة.

نفس الشخصيات التي رفضت هذه الصياغة ، رفضت صياغة اقوي عن القرار حول تقرير المصير، والعلاقة بين الدين والدولة . وبهذا فقد انتقل الصراع الي الجلسات العامة للمؤتمر ، واستطاع اعداء المراة ان يفشلوا خطة ان تتبناه احد اللجان وترفعه كواحدة من توصياتها.

رجل متفرد وسط المندوبين :

خلافا لمعظم المندوبين ، فان السيد طه جربوع ، احد ممثلي الشخصيات الوطنية ، قد كان له موقف واضح ومساند لقضية المراة السودانية في المؤتمر ، علي طول الخط.

لقد اعلن الاستاذ طه ان هناك قضايا جوهرية وقرارات هامة ينبغي ان تناقش وتتخذ ، ومن بينها اعتبر مسالة اعادة صياغة المادة 5 من قرار التجمع حول الدين والسياسة ، وان المؤتمر ينبغي ان يجيز التغيير فيها ، بما يحفظ للقرار توازنه ، وبما يحفظ حقوق المراة . التحية للاستاذ طه علي هذا الموقف المتفرد.

اجتماع النساء الاول:

في مساء يوم 11 ستمبر، تم اجتماع شاركت فيه لاول مرة معظم ان لم يكن كل المندوبات النساء للمؤتمر. ابتدرت الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم الاجتماع بكلمة قصيرة ، اشارت فيها الي ضرورة اتفاق المجتمعات علي معاهدة للحقوق النسوية ، ترفع الي المؤتمر لكيما يتبناها في وثائقه.

كان طرح ممثلات التحالف ان هذ الخط غير سليم ، وان من الافضل توحد جميع الندوبات حول تغيير الفقرة رقم 5 ، وتبني المؤتمر لمعاهدة سيداو . كما اكدن ان اقتراح المجتمعات لمعاهدة ، سيفتح الفرصة للعناصر المحافظة للهروب من قضية اقرار سيداو ، باعتبار ان لهم معاهدتهم البديلة . كما اكدت ممثلات التحالف ان سيداو معاهدة عالمية شأملة، لها جهازها التنفيذي، في شكل لجنة تراقب التزام الدول الموقعة بتنفيذ الاتفاقية ، كما ان لها بروتوكولات تفصيلية ملحقة واجراءات الخ الخ ، الامر الذي يجعل من النافل كتابة معاهدات خاصة جديدة ، اضعف صياغة واجراءات ، وذلك فقط تحت ضغط العناصرالرجعية.

من الجهة الاخري فقد كان هناك تيار يري ان قضايا المراة السودانية ينبغي ان تتلخص في حل مشاكلها العاجلة ، وتامين حقها في العمل والاجرالمتساوي للعمل المتساوي ، وترك قضية اقرارسيداو الي مرحلة لاحقة.

في ظل هذا الاختلاف ، فقد حسم الامر براي الاغلبية ، والتي رات كتابة المعاهدة، الامر الذي احترمه التيار الاخر ، وبدات مرحلة صياغة المعاهدة العتيقة ، اي اعادة اكتشاف امريكا مرة اخري.

الاتحادي الديمقراطي يؤيد الخفاض الفرعوني:

بدات الصياغة بصياغة الحقوق السياسية والاقتصادية ، والتي مرت دون خلاف ، وعندما جاء دور الحقوق الاجتماعية ، اقترحت أمل قرني اضافة فقرة عن محاربة التقاليد الاجتماعية الضارة ، واضافت كامثلة زواج القصر من البنات ، والخفاض الفرعوني.

في هذه اللحظة اخذت الكلمة ماجدة عوض خوجلي ، ممثلة الاتحادي الديمقراطي ، والتي علقت بانها ترفض اضافة الخفاض الفرعوني كمثال ، وذلك لان لحزبها راي آخر في هذه النقطة ، حيث لا يعتبر الخفاض الفرعوني ممارسة ضارة.

اخذت الدهشة الحاضرات ، ولم تعلق عضوات الاتحادي الاخريات ولم يدعمن موقف زميلتهن . علقت أمل صاحبة الاقتراح بان هذا الموقف غريب بالنسبة لها ، لان الخفاض الفرعوني خرق واضح لحقوق الانسان ، الامر الذي يجعل من الصعب علي اي حزب الدفاع عنه ، حتي ولو كان الاتحادي الديمقراطي. وان هذه الممارسة قد منعت بالقانون ومنذ عام 1947 ، وان معظم الحكومات السودانية قد حاربتها ولو ظاهريا، وانه حتي نظام الانقاذ لم يعلن عن تاييده لها، وواصل في منعها القانوني ، ولذلك فان موقف الاتحادي هنا هو جديد وغريب وشاذ. هنا تدخلت الاستاذة فاطمة ، قائلة لأمل : لو قالت ليك دا موقف حزبها ، خلاص ما تناقشيهو ، ونخلي الموضوع دا ما دام فيهو اختلاف ، وما "تحُكيها" . وهكذا كان .

مماحكات واستفزازات :

لم تحُك أمل الموضوع ، وتواصل الحوار من اجل صياغة الفقرات الاخري.

في مرحلة لاحقة اتت احد المندوبات باقتراح ان تضاف فقرة منطوقها كالاتي : (يقف التجمع الوطني الديمقراطي ضد استغلال الاديان وتحريفها لمحاربة حقوق المراة ، او لنزع تلك الحقوق التي اكتسبتها)

هنا من جديد تدخلت ماجدة عوض خوجلي ، واوضحت انها وحزبها ضد اي قرار ، او اقتراح ، او صياغة ، تدين الاديان عموما ، والدين الاسلامي خصوصا .اوضحت صاحبة الاقتراح ان القرار ليس ضد الدين ، ولكن ضد استغلال الدين ، وان الفرق شاسع بين الامرين ، وانضمت لهذا الراي كل الحاضرات تقريبا ، وقدمن لمندوبة الاتحادي امثلة عديدة علي ممارسات استغلال الدين ، وتحريفه ، الخ الخ

الا ان ممثلة الاتحادي قد كانت صماء عن سماع اي راي غير رايها ، واعلنت ان كل هذا لا يهمها ، وان هذا هو رايها - وراي حزبها - وخلاص ، وان هذه الفقرة لن تمر.

امام هذه المماحكة والاستفزاز الواضح ، اخذت أمل قرني الفرصة للحديث ، واوضحت التالي :

1- ان مواقف لا تقبل النقاش في صيغة -كدا وخلاص - لهي امر غير مقبول

2- ان انتهاك حقوق المراة باستغلال الدين قد كان ممارسة سارية في السودان لعقود

4- ان استغلال الدين وتحريفه هو سلاح مضاء في يد الرجعيين والمتسلطين لقهر المراة ووضعها في المكان الذي يريدوه لها

4- انه بدون معالجة هذا الامر ، فان التحالف غير راغب في اي معاهدة تاتي ضعيفة ، ولا تضيف شيئا لما اقر في عام 1995 ، وانه اذا كانت بعض الاحزاب تقف مواقف متصلبة وغير قابلة للنقاش ولا تقتنع بمنطق الاغلبية ، فان التحالف لن يوقع علي هكذا معاهدة ، ومن الافضل عدم اجازتها ، من اجازتها بهذا الضعف .

5- ان النقاشات ينبغي ان تقوم علي قاعدة التنازلات المتبادلة ، وخذ وهات ، وليس فرض اراء تنظيم معين علي طول الخط.

الشكلة او ما تتكلمي يا بت انتي لسة شافعة :

في هذه اللحظة انفجرت مندوبة الاتحادي ماجدة عوض خوجلي كبركان ثائر، وقالت انها لن تبقي في اجتماع فيه أمل قرني ، وان أمل لا تحترم احدا ، وانها ذاهبة - هكذا - .

هنا تكهرب الجو ، وبدأت كل النساء تقريبا في الهجوم علي أمل ، وكيف انها السبب في فشل الاجتماع ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ثم بدات الاستاذة فاطمة في لومها ، وكيف انها ينبغي ان تحترم من هن اكبر منها سنا وتجربة ، وكيف انها لا تراعي لاحد ، وان فاطمة احمد ابراهيم قد بدات السياسة قبل ان تولد أمل قرني ، وانها يجب ان تجلس صامتة وتتعلم من الاخريات ، وان لا تضع الاشياء وفق المزاجها ، وان كل شي لا يمكن ان يتم وفقا لرغباتها ، وهلمجرا والخ الخ.

امام هذا المنطق المقلوب ، والعكس الواضح للاشياء ، والبحث عن الحيطة القصيرة ، اوضحت أمل قرني انها لم تقصد استفزا ز ماجدة او اي شخص اخر ، وان كل حزب له الحق في ان يعبر عما يريد ، وان النقاش لا ينبغي ان يجهض ويتوقف بنهاية درامية كما تم ، وان هذه قضايا مهمة للنساء وليست مسائل شخصية ، وذكرت كيف ان معظم الحاضرات قد قدمن تنازلات عديدة ، في وجه المواقف المتصلبة لمندوبة الاتحادي الخ الخ

الا ان كل هذه التفسيرات لم تؤت اكلها ، وانتهي الاجتماع علي ذلك ، ولم يرجع اليه قط من بعد ، وكان بذلك الاجتماع الاول والاخير الكامل ، للمندوبات النسويات الي المؤتمر.

التعبئة وفرز الكيمان :

في اليوم التالي كان الخبر قد انتشر ، حول مجريات ذلك الاجتماع ، وبدات حركة محمومة من كل مجموعة للتعبئة وضم مؤيدين لها ، سواء من وسط المندوبات النسائيات ، او وسط المناديب من الرجال ، وعلي مستوي الاحزاب.

لقد اتضح تماما ، ان الحزب الاتحادي الديمقراطي وحده ، قد كان هو الاكثر تصلبا ورفضا ، فيما يتعلق بسيداو ، والمادة 5 ، والخفاض الفرعوني ، وعلاقة الدين بالسياسة ، الخ الخ من هذا الطرح الرجعي الكيزاني الذي طرحته ممثلتهم داخل المؤتمر.

وقد كان واضحا بالمقابل ، ان هناك احزاب كثيرة ، كانت تري ضرورة عدم عزل الاتحادي، وضرورة الوصول الي مساومة وحلول وسط ، ما دامت القرارات يجب ان تتخذ بالاجماع، ولكنهم ذهلوا ان الاتحادي لم يكن يبحث عن حلولا وسطا ، وانما عن فرض حلوله هو.

كما ان عددا من المندوبات ، وخصوصا مندوبات الداخل ، قد كن مهتمات في المقام الاول ، باقرار معاهدتهن ، والتي قيل انهن بذلن فيها جهدا كبيرا ، وقد عبرت الاستاذة محاسن عبدالعال عن حالهن ، حين قالت انهن عملن ا كثيرا من اجل هذه المعاهدة ، وانها لا يمكن ان ترجع للنساء بالداخل ، وتقول لهن انهن لم ينجزن شيئا.

الحزب الشيوعي ضد الحزب الشيوعي:

بدا واضحا ان الجناح التقدمي وسط المندوبات والمندوبين ، يفتقر الي الارداة لاجراء تعبئة قوية ضد مواقف الاتحادي الرجعية والتسلطية ، وان كل منهم له اجندته الخاصة ، وان العديدين منهم لا يود ان تتكون اغلبية تضغط علي الاتحادي ، وتجعله ينصاع لقرارات الاغلبية الساحقة ، او يكون اقل تصلبا واكثر قدرة علي مساومة والوصول الي حلول مرضية لكل الاطراف .

في هذا الجانب يسترعي الاهتمام موقف الحزب الشيوعي ، والذي لم يقدم اي دعم للتيار التقدمي ، وخصوصا في مواضيع مثل اقرار سيداو ، والمادة 5 سيئة الصيت ، وغيرها . حيث كانت الاستاذة فاطمة تعبر عن مواقف وسطية بامتياز ، وكان دورها قائما علي كبح

جماح التيار التقدمي ، وتقديم النصائح له عن التحربة والسن وما الي ذلك ، اما الاستاذة سعاد ابراهيم احمد ، فقد كانت غائبة تماما عن كل الجلسات والاجتماعات التي ناقشت قضية المراة ، ولا ريب ان وجودها وصوتها كان يمكن ان يكون له تاثير كبير في النقاش وفي الوصول الي قرارات ، وفي دعم التيار التقدمي بشخص له خبرة وسن الخ ، بينما كانت هالة عبداللطيف سلبية ولم تقف مع التيار التقدمي في اغلب الحالات.

فقط الدكتورة ماجدة احمد علي ، من عضوات الحزب الشيوعي ، والتي اتت الي المؤتمر كشخصية وطنية ، كان موقفها واضحا مع التيار التقدمي ، وقدمت له الكثير من الدعم ، بينما كانت العضوة الاخري من الحزب والممثلة في وفد تجمع الداخل ، بنفس سلبية زميلاتها . وهكذا من جملة 5 عضوات للحزب الشيوعي ، ثلاثة منهن يمثلنه مباشرة ، فان واحدة فقط قد مثلت موقفا تقدميا داخل المؤتمر.

ادي ذلك الي اضعاف التيار التقدمي وسط مندوبات ومندوبي المؤتمر دون شك ، ولكنه اوضح من الجهة الاخري ما هو موقف الحزب الشيوعي في الممارسة ، وكيف انه في هذا الامر ، كما في غيره من القضايا ، اصبح حليفا ورديفا للقوي التقليدية ، وكيف انه في داخله منقسم ، ما بين تيار تقدمي صغيرغير مترابط ، كما عبرت عنه دكتورة ماجدة ، وكما يقال عن دكتورة سعاد ، والتي مع ذلك لم تشارك ولم تدعم التيار التقدمي بثقلها ، وبين تيار تقليدي راسخ ومسيطر ، عبرت عنه فاطمة ، وهالة والعضوة الثالثة ، والاعضاء الرجال من ممثلي ومندوبي الحزب المعلنين والمستترين داخل المؤتمر.

موقف الحركة الشعبية واليوساب:

كذلك يسترعي الانتباه موقف مندوبات ومندوبي الحركة الشعبية لتحرير السودان ، واتحاد الاحزاب السودانية الافرقية - اليوساب- ، والذين هن من ناحية المبدا مع علمانية ومدنية الدولة ، ويفترض ان يكون لهم راي واضح في المادة رقم 5 ، وفي مسالة اقرار معاهدة الغاء كافة اشكال التميز ضد المراة ، والمعروفة بسيداو .

لم يكن الموقف كذلك ، حيث كانت هذه الاحزاب سلبية الي اخر درجة ، ولم تاخذ اي مبادرة ، كما لم تدعم التيار التقدمي . وقد بررت ذلك مندوبتهم في حوار مع ممثلات التحالف ، حيث قالت انهم يعتبرون هذه قضايا ومشاكل خاصة بالمراة المسلمة ، وانهم لن يدخلوا في صراع المسلمات بين بعضهم ، وان لهم اولويات اخري ، ومنها قضية الحرب ، والمراة اللاجئة والمهاجرة ، ووضع النساء في مناطق العمليات ، ومبادرات وقف الحرب الخ

كان موقف عضوات التحالف ، ان هذه قضايا ذات اولوية فعلا ، وانها ينبغي ان تكون قضايا لكل النساء السودانيات، وليس لنساء الجنوب وحدهم ، وان التيار التقدمي سيثيرها ويدعمها. من الجهة الاخري لم يكن من الممكن الاتفاق ان قضايا اقرار سيدواو والمادة 5 هي قضايا خاصة بالمراة المسلمة ، او الشماليات ، كما ذهبت الي ذلك ممثلات الحركة واليوساب.

اوضحت ممثلات التحالف ردا علي السابق ، ان اضطهاد المراة باسم الدين وباستغلاله ، وباسم الثقافة والعادات والتقاليد وباستغلالها ، انما هي ظاهرة في كل المجتمعات ، وليست قاصرة علي المجتمعات المسلمة . وفي السودان بالتحديد نجدها في مختلف التجمعات البشرية ، غض النظر عن الدين ، وان واقع النساء السودانيات في الجنوب وفي المناطق المهمشة ، لهو بنفس ردائة اخواتهن في الشمال. فتعدد الزوجات مثلا الذي ينظر اليه وكانه ظاهرة اسلامية ، موجود في الجنوب وممارس باسم الدين او العرف او التقاليد ، كما ان حقوق المراة في الوراثة وغيرها مقموعة سواء كانت في الجنوب او الشمال او اي منطقة اخري ، وكذلك حقها في اتخاذ القرار والمشاركة في الاطر القيادية لمجتمعها ، سواء في القرية او العشيرة او القبيلة الخ ، او علي مستوي الدولة.

بهذا المعني ، فان ما يربط النساء هو اعظم واكبر مما يفرقهن ، ولذلك ينبغي ان تتوحد جهود النساء وان يكون لهم اراء موحدة في مختلف القضايا التي تطرح ، وخصوصا اذا كن ينتمين الي احزاب تقدمية وعلمانية وديمقراطية.

تراث من عدم الثقة :

هذه الحقائق البسيطة كان من المفترض ان تكون مقنعة ، لولا تراث عدم الثقة الموجود بين مكونات الحركة السياسية في الشمال والجنوب ، وغيرها من المنطق المهمشة ، والذي يمتد الي الحركة النسوية ، وينتج مثل هذا الشكل من التفكير ، الملئ بالكثير من العموميات.

مما لا ريب فيه ان المادة 5 لا تتكلم عن دين معين ، وانها تستهدف النساء في كل مناطق السودان، الامر الذي يفترض ان يجعل النضال ضدها موحدا، رغم ان انعكاسات هذه المادة ستكون مختلفة من منطقة الي اخري. ومن البديهي ايضا انه علي النساء في كل مجموعة ثقافية، ان يناضلن في محيطهن بالذات ، ولا يمكن ان يتعللن بنضالات شعوب اخري ومجتمعات اخري ، او يبحثن عمن يناضل لهن ، ويحل لهن مشاكلهن في بئيتهم الثقافية من الخارج ح لكن الامر هنا يتعلق بقضية تشمل كل البلاد ، ويتعلق بمنطمة – التجمع – تدعي مخاطبتها لقضايا كل البلاد.

بعيدا عن هذا الفهم القاصر بان سيداو والمادة 5 تتعلق بالنساء المسلمات ، فما لا ريب فيه ان موقف المندوبات الجنوبيات قد كان نابعا من تراث عدم الثقة في المقام الاول ، وعدم رغبتهن في ان يتمحورن مع هذه المجموعة او تلك داخل التجمع ، الامر الذي ادي في المحصلة، بهذه السلبية ، ان يدعمن مواقف المجموعة الاكثر رجعية داخل التجمع .

ومن الملاحظ ان التجمع نفسه لم يساعد في تذويب مناخ عدم الثقة هذا ، فمن بين المندوبات الجنوبيات فقد كانت معرفة العربية قراءة وتخاطبا ضعيفة ، ولم يبادر التجمع الي ترجمة الوثائق ووضعها في لغتين قبل الاجتماع . كما ان ادارة الحوار بالعربية بين المندوبات النساء كان يمكن ان يعطي الانطباع بان كل هذا انما هي شكلة بين المسلمات الشماليات.

المعسكر التقدمي من جهته ، قام في شخص الدكتورة ماجدة احمد علي بدور كبير في الترجمة وتقريب الشقة بين المندوبات الجنوبيات وغيرهن، كما قامت مندوبات التحالف بترجمة اطروحات التحالف والتحالف النسوي ومذكراته لقيادة التجمع السابقة ، ووضعها بين ايدي المندوبات الجنوبيات باللغة الانجليزية ، ولا ريب ان هذا الدور كان ينبغي ان يلعبه التجمع بما يتوفر له من امكانيات ، لو كان راغبا في بناء جسور الثقة.

ان فشل التجمع في عملية ترجمة الوثائق ، وفشله في تقديم حلول لتجاوز ازمة عدم الثقة ، انما تلقي الكثير من الشك حول ادعاءاته باحترام التعددية الثقافية واللغوية في السودان ، كما ان تثبيت لغة واحدة في اجتماعات التجمع ، دزن توفير امكانيات الترجمة الفورية الخ ، انما تجعل من مشاركة غير الناطقين بها ، مجرد مشاركة شكلية ، اذا لم يكونوا قادرين علي المتابعة بنفس درجة رفيقاتهن ورقاهم ، وبالتالي قان صوتهن وصوتهم سيكون اما منعزلا ، او ضائعا.

بين المبدئية والمساومات :

لقد كان واضحا ان المعسكر الرجعي ، من مندوبات واحزاب ، قد كان يسعي الي تشويه المطالب العادلة للمعسكر التقدمي ، والمثلة في تبني سيداو ، وتغيير المادة 5 ، وتبني مجموعة من الاستراتيجيات الهادفة لتفعيل النساء. وكالعادة فقد تم اختيار كبش فداء، كان هو الاستاذة أمل قرني، احدي ممثلات التحالف ، واحد الاصوات البارزة والمتمكنة من ممثلات المعسكر التقدمي. وقد جري تصويرها بانها متصلبة ، وانها تطرح مبدأ كل شي او لا شي ، وانها لا تبحث عن حلول وسط ، ولا تحترم الكبار ، الخ الخ من الاتهامات ا غير ذات الصلة بالمطالب المرفوعة وحقيتها وموضوعيتها.

لم يكن المعسكر التقدمي باي حال متصلبا ، كما لم تكن الاستاذة أمل متصلبة ، بل لقد سعي هذا المعسكر اكثر من غيره ، للالتقاء بكل المندوبات ، وتوحيد صوت النساء . في كل ذلك لم يكن يبحث عن مكاسب حزبية او قيادية ، بل كان كل همه مرتبطا بتامين حقوق المراة في داخل التجمع ، ودفعها للامام ، تمهيدا للنضال الصارم من اجلها خارج التجمع وفي المجتمع وفي النضال ضد السلطة الدكتاتورية.

الا انه في حالة حقوق النساء ، وفي الحالات المحددة المرتبطة بالمادة 5 وتبني سيداو ، فانه لم تكن هناك مساحة للمساومة ، حيث ان المادة 5 لا تتناقض فحسب مع كل القرار المجاز عن الدين والدولة ، وعن بقية قرارات مؤتمر عام1995 ، بل ومع المعاهدات الدولية . وقد كان راي التيار التقدمي انه اذا لم تكن هناك امكانية للتغيير نحو الافضل ، فمن الاجدي اذن عدم تبني مساومات رخيصة تضر بقضية المراة ، الامر الذي لم يوافق عليه كل من المعسكرين الرجعي والوسطي.

لقد كان الحل الوسطي المبدئي المقبول ، في حالة تعذر تغيير المادة 5 ، هو الغائها كلية ، وخصوصا انها لا تخدم قضية المراة كما يبدو من الوهلة الاولي ، وانما تقيد حقوقها بهذا النص الغامض والعام عن عدم التناقض مع الاديان ، وذلك بعد ان جاء في مواد سابقة مبدا قيام الدولة علي المواطنة ، وتساوي جميع المواطنين ، بما فيهم النساء، في حقوقهم وواجباتهم ، امام القانون.

انعدام الديمقراطية الداخلية وتسلط القيادات الرجعية:

قد يقول قائل ، وما دخل التجمع ، اذا كانت بعض النساء ، يقفن ضد حقوق المراة ، وضد تامينها بمعاهدة عالمية اصبحت اساسا للسياسة تجاه المراة في اي بلد متحضر ؟

ونقول ان وقوف معظم النساء المشاركات في المؤتمر ، ضد اجازة التجمع لسيداو ، انما كان انعكاسا لانعدام الديمقراطية في احزابهم ، وكون القيادة الذكورية عندهم لم توافق علي اجازة المعاهدة. تبدي ذلك في موافقتهن في اللقاءات الثنائية مع ممثلات التحالف وبقية المجموعة التقدمية المطالبة باجازة الاتفاقية وتراجعهن عن ذلك بعد التنسيق مع احزابهن ، وفي لحظة التصويت.

ولكن يبدو ان الاعتماد علي القيادة الذكورية ليس حكرا علي الاحزاب التقليدية والدكتاتورية.

فأمل قرني نفسها، ورغم وضوح موقف التحالف التام من هذه النقطة اضطرت الي نقاشها مع عبدالعزيز خالد وطلب دعمه. وقد اكد لها الرجل دعم قيادة التحالف التامة لهذا المطلب - اجازة سيداو - ،الا ان أمل قد يشفع لها حجم الضغط الذي تعرضت له من ديناصورات الحركة النسوية،وحديثهن الجاهل عن المعاهدة ، وسلوكهن الفظ، الذي امتد في النهاية الي التهديد تجاهها من اؤلئك الموظفات الحزبيات وقياداتهن.

خلاصة :

انتهي الامر بان لم يجز مؤتمر التجمع ضمن وثائقه ، معاهدة دولية لحماية حقوق المراة ، كما لم يغير المادة 5 سيئة الصيت . وفي المحصلة وقف موقفا رجعيا ومعاديا لقضايا المراة . فما هو الحل من هذا ؟

في ظني المتواضع ان السودان يحتاج الي احزاب جديدة ، والي تحالفات جديدة ، والي حركة نسوية جديدة ، وذلك لان احزابنا هي اما طائفية ، او عقائدية ، او احزاب سلطوية تنشا عبر السلطة ومن اجل السلطة ، كما ان التحالفات القائمة هي تحالفات انتهازية ، لا تقوم علي وحدة البرامج وتقارب الاهداف ، وانما علي توازنات ، ومكايدات ، ولعبة الكراسي ، وشيلني واشيلك ، كما ان الحركة النسوية

مدجنة من قبل السلطة وتلك الاحزاب ، واقدم تنظيماتها ، الاتحاد النسائي يعاني من ازمة برامج وازمة اتجاه وازمة قيادة ، والتنظيمات الجديدة والتقدمية لا تزال صفوية وصغيرة الحجم ومنعدمة التاثير.

نحن المؤمنون بحقوق الانسان وحقوق المراة ، لا نريد ان نخضعها للموازنات والمساومات ، كما ان المثقفين في تلك الاحزاب الشمولية والمعادية للمراة ، هم اناس مثلنا ، ولهم قدراتهم واختياراتهم ، وليس من واجبنا التاثير عليهم ، فهم ادري بتلك الاحزاب ، وادري بمصالحهم، والاختيار يفترض ان يتم منهم ، كما اخترنا نحن ، وكما اختارت غالبية الشعب السوداني والمتنورات من النساء، الذين انفضضن عن تلك الاحزاب.

ليس لي مشكلة اطلاقا في ان يتطور جيل جديد من داخل تلك الاحزاب ، يطرح طرحا جديدا ، ويتقيد بالديمقراطية وحقوق الانسان ، ولكنني للاسف لا اراه ، ولو كان ففي بنية تلك الاحزاب من الكوابح والاليات ، ما يجعل جهده حرثا في البحر. إن المراة السودانية تنهض ، ولكن هناك من يحاولون تكبيل نهوضها .

يمكننا هنا ان ننظر لتحصيل المراة العلمي ، واكتساحها للجامعات ، ونشاطها الانتاجي في مناطق الانتاج التقليدي ، وتوفيرها لاقتصاد المعيشة في المدينة ، ودخولها الي كافة مجالات العمل الانتاجي والخدمي ، وانجازاتها العلمية ، حتي اصبحت لنا اكثر من 54 سودانية بدرجة معيد استاذ في الجامعات الامريكية ، ومساهماتها السياسية ، ومن اعظمها الاستشهاد ، والذي اجترحت شرفه التاية ، ومشاعر ، وجيهان ، وزهرة عبدالقادر ، وبخيتة الحفيان، ثم لننظر الي حظها من الوصول الي مراكز القرار والسلطة ، لنجده صفرا، ولنجد المسؤولون عن قهرها ، هم نفس المسؤولون عن قهر الشعب السوداني.

أغسطس 2003

الثورة النسوية في السودان[7]

افتح الصفحة الاولي في منبر الحوار فاجد ارهاصات الثورة النسوية ساطعة .

لقد ظللنا نزعم انه في السودان تفور تحت السطح وتختمر ارهاصات ثورة اجتماعية نسوية ستقلب كل الموازين الاجتماعية والسياسية والثقافية متي ما انفجرت، وها ان حقل الكتابة والمساهمة في البورد يكشف جانبا من تلك الارهاصات.

افتح الصفحة الاولي للبورد فاجد مختلف المساهمات لكاتبات البورد تخاطب الثقافي والاجتماعي والسياسي بمفاهيم جديدة ووعي متقدم ولغة راقية، وها هنا بعض النماذج من الذاكرة ودون ترتيب وباختصار شديد:

كل من تلك الكاتبات لها صوتها الخاص، وهن يكتبن علي مساحة واسعة ومحاور متعددة من الكتابة الابداعية، النقدية، قضايا الجندر، السياسة، الفلسفة والتاريخ ، القضايا الاجتماعية ، الفنون الخ الخ من القضايا التي ما ان يدخلن لها حتي يفلفلنها ويضرين فيها قصب السبق.

يطرح السؤال نفسه اذا كا كانت كاتبات البورد تعبير عن هذا الجيش العرمرم من الصحفيات والمبدعات والكاتبات والباحثات والناشطات المدنيات والسياسيات، فلماذا لا نري انعكاس ذلك في تبوء النساء السودانيات لمواقع متقدمة في مراكز صنع القرار السياسي والاجتماعي، لماذا هذا التناقض المذهل ما بين هذا الاسهام النسوي الكبير في صنع الواقع الثقافي والاجتماعي، وبين ان قمة الهرم الاجتماعي مسيطر عليها بشكل ذكوري بحت؟

السؤال الثاني هل هجر السياسة ومراكز القرار هو استراتيجية بديلة - واعية او غير واعية - تستخدمها النساء وخصوصا الاجيال الجديدة منهن في ايصال صوتهن ومشاركتهن عبر وسائل اخري، والي اي حد تكون هذه الوسائل الاخري ناجعة في غياب النساء عن المشهد السياسي المسيطر علي الحياة العامة في السودان؟

السؤال الثالث عن دور النساء ممن لا يظهرن علي صفحات النت او الجرائد او التلفاز، ولكنهن يساهمن في خلق الحياة وتجديدها عبر كسب العيش ورعاية الاسرة وتربية الاطفال وذلك في ظل ظروف قاهرة وفي غياب الزوج او الرجل في مرات كثيرة، ألسن هن ايضا جزء من هذه الثورة النسوية التي تختمر، ومتي يتحول هذا الواقع - في ذاته- حيث اسهام المراة لا ينكر، الي وعي بالذات ومطالبة بالحقوق التي تقابل الواجبات ؟

اتفق علي الحجم الكبير للابداع النسوي في مجالاته البحثية والفنية والادبية الخ ، ولا انسي ان اشير الي الهجوم النسوي الكاسح علي مؤسسات التعليم العالي، والذي من مظاهره ان العشرة الاوائل في امتحانات الشهادة لمدة عقدين او تزيد ، مسيطر عليه تماما من قبل النساء

[7] مقتطفات من حوارات في منبر سودانيز اونلاين كوم

اعتقد اننا يمكن ان نبتدئ برئاسة امراة لحزب سياسي، وهو امر كما قلت لمعتز اقرب الينا من حبل الوريد، ولا ريب اناسنري عما قريب تحولات هامة في البنية السياسية، لن يكون معها رئاسة المرأة للوزارة او الدولة، امرا عسير التحقق.

تماضر شيخ الدين:

دورك كاحد رائدات العمل الابداعي في مجال المسرح سواء كممثلة او مخرجة او باحثة سيظل يسجله تاريخ النهضة المسرحية السودانية، عندما يكتب بصورة موضوعية، وعندما يحترم المسرح في السودان ودوره، وعندما يحترم انسان ومواطن السودان، او بالاحري عندما ينتزع هذا الاحترام الذي هو مؤهل له، قسرا من ايدي اعداء المواطن والانسان.

كما قلت في مجال اخر، فان الحياة العامة السودانية تفرض علي الاديب ان يكون سياسيا، وعلي الباحث ان يكون ناشطا، وعلي المرء ان يحاول الهدم والبناء في آن، او بكلمة الطف، التفكيك والتركيب في آن، وهذا كله يرجع لتشوه الواقع الاجتماعي - السياسي - الثقافي، الذي يفرض علي الناس خيارات ليست من اولوياتهم ولا ينبغي ان تكون.

من هذا المنطلق انظر الي مساهمتك ككاتبة، وفي الحقيقة فانه عدا من نقدك الذاتي اعلاه وفي امكاكن اخر، الا اني لا اري اي اعتراض علي دورك ككاتبة، فانا اراه مكملا ومنغما مع دورك كممثلة ومخرجة وكاتبة نصوص مسرحية الخ ، وكتاباتك تستقي من نفس المنبع وتصب في نفس المصب، وهو منبع الموقف الانساني ومصب الابداع السوداني.

ردود على تساؤلات:

طبعا انا لم اقل انه ليس هناك انعكاس لابداع المراة وتقدمها الكبير وهذه الثورة التي تختمر، علي ممارستها للعمل السياسي، فالنساء عندما يمارسن السياسة فهن متقدمات واوسع افقا من الرجال، ولكن قلت انها مغيبة عن مراكز القرار، وفي هذا فليتواصل الحوار.

نجلاء وميرفت علي العين والراس، ولا اعرف كيف نسيتها، وهذا حقيقة من باب الخطأ غير المقصود والذي لا يغتفر، ولكن الاستاذة رباح الصادق المهدي اعتقد قد وجدت حضورا سياسياوامكانيات للنشر وشهرة لا تقدر، بسبب من وضعها المميز، لذلك لا اري سببا لكيما اميزها اكثر.

نعم اعتقد انه تمت انتكاسة كبيرة، ولكن اعتقد انها انتكاسة مجتمع اكثر منها انتكاسة المراة فحسب، فنحن في السودان نمر بنط التطور ليس الراسمالي او الاشتراكي، وانما نمط التطور الانحداري او التراجعي، اذا كان هذا يمكن ان يكون تطورا، وما ذلك الا لعجزنا عند فجر الاستقلال وما بعده عن مواجهة اكثر القضايا مصيرية، مكتفين بالسفاسف والقشور، والمشاكل التي لا تحل لا تكون بنفس حجمها مع الوقت، بل تتفاقم وتتضخم.

اعتقد ان كثيرا من النساء قد انخدعن باحزابنا السياسية وخصوصا التي تزعم التقدمية، وبكثير من الايدلوجيات "الثورية " التي هي في مجملها ايدلوجيات ذكورية وابوية، فوق وجود شريحة لا يستهان بها من القياديات النسوية

الانتهازية - مثلها مثل الرجال تماما، وهذا جزء من اسباب الانتكاسة، فوقا عن الهجمة العنيفة المضادة للمراة، والتي قادتها بايدي النساء الحركات الاصولية في السودان علي مختلف تلويناتها.

بالمقابل نجد انه رغم سوء الظروف الموضوعية، فان حلقات تتوسع باستمرار من النساء قد قدمن الكثير في مجال النشاط العام، وان كن قد وقعن تحت حصار قاتل، ولهذا لا اعتقد ان المراة عموما ساهمت في الانتكاسة، بقدر ما كان نصل الانتكاسة موجها ضدها بصورة كبيرة.اعتقد ان اي سلبيات تقرن بما يسمي بالسلوكيات النسائية، انما ترجع لظاهرة التنميط والتنشئة الايدلوجية التي يرسم بها المجتمع الذكوري ومؤسساته دور المراة وحدودها، وفي القلب منها مسالة ضرب النساء بالنساء - المراة بيدقوها بي اختا- ، ولذلك فانا حتي في هذا الصراع النسوي - النسوي كما تقولين، اري يد الايدلوجية الذكورية واضحة، وهيمنة المؤسسات التقليدية والاستغلالية، ولا ريب ان الرجال يستخدمون هذا الاسلوب كشكل من اشكال اخضاع المراة ووضعها في علبها، وخصوصا اذا تجاوزت في ذهنهم الخطوط الحمراء المزعومة.

ضرورة الأحزاب الجديدة:

انما الكون واحد رغم الكثرة، وانما الانسان واحد رغم الم شقه الي قسمين - امراة ورجل - لهذا يبدو النزوع الطبيعي للاتحاد بين المراة والرجل،بحثا عن تلك الوحدة التي كانت ذات يوم . ولهذا ايضا يكون النضال المشترك من اجل عالم افضل للانسان.اتفق معك الي حد كبير، واتفق معك علي تخلف هذه التجمعات الذكورية الابوية المتسلطة التي نسميها احزابا سودانية، وممارستها السياسية بعقلية سوق الملجة، كما يقول الرائع ابكر ادم اسماعيل.

من الناحية الاحري فان العمل العام لا ينهض الا فوق جناحين: مجتمع سياسي ومجتمع مدني، ولذلك فان منظمات المجتمع المدني - علي اهميتها الفائقة - لا تكون بديلا عن النضال السياسي والمساهمة السياسية والمجتمع السياسي، وقد كانت هذه نقطة خلافي الاساسية مع الاستاذ بشري الفاضل، الذي اراد لنا ان نهجر السياسية والبدائل السياسية، من اجل تكوين مجموعات ضغط ومنظمات مدنية.

لذلك فانا اصر واشدد علي ضرورة قيام تنظيمات سياسية جديدة وفكر سياسي جديد وممارسة سياسية جديدة، اي باختصار مجتمع سياسي سوداني جديد، يقفدم البديل عن تخثر وتكلس السياسة السودانة، ويفتح الباب امام جماهير النساء والشباب والمهمشين للمساهمة الفعلية والجادة والمتميزة في العمل العام.بل هي الورطة وهي الازمة وهي القضية التي لا هرب منها، فكل هرب منها هو اليها، ولا سبيل غير امساك الثور من قرنيه وطرحه ارضا او فعل ما يروق لنا به، قبل ان يكسر كل الخزف وقبل ان يدخل في احشائنا قرونه هذه، والثور عندي هو الازمة السودانية بكل تجلياتها التي قمتي بشرحها بشكل لا اكن اطمع بالتعبير عنه بصورة افضل.

عالية عوض الكريم:

تجربة المعسكر الستاييني يا عالية والتي تابعتها وقرأتها بشكل لا بأس به خلال ال15 سنة الماضية، اثبتت لي قوة الكلمة، حيث علي مدي سبعين عاما من عمر الاتحاد السوفيتي و50 عاما هي عمر انظمة شرق اورويا، كانت المعارضة غالبا في

المشهد الادبي وعبر الكلمة، وليس بفعل سياسي مباشر لم تكن تتواجد اي شروطه، ولكن هذا الزخم الادبي والتعبيري والذي لعبت فيه النساء ايضا دورا كبيرا - مثل اننا اخمتوفا في الاتحاد السوفيتي - افرز اكله بقيام التضامن في بولندا عام 1980 وحركة حقوق الانسان في روسيا ومجموعة ورقة 77 في التشيك وغيرها، مما ادي لطوفان التغييرات في اواخر الثمانينات واوائل التسعينات.

لذلك فانا اقول ان هذه النهضة الابداعية والمدنية للمراة السودانية الشابة، انما تحمل زخم وارهاص الثورة السياسية والاجتماعية النسوية القادمة، وان السياسة السودانية ما تفسخت هكذا، وانعدمت فيها كل البدائل، الا لكيما يكون البديل عنها جذريا وخارقا للمألوف.

ازعم ان الثورة النسوية القادمة، ستتم في اتساق مع التغيير السياسي والديمقراطي ومع ضرورة التحول المشهد الحزبي والمدني، بل اكاد اقول ان جيل النساء الجديد هو المؤهل لانجاز التغيير في بنية الحركة السياسية السودانية، وربما كان هذا اقرب الينا من حبل الوريد وفي متناول اليد، ولكن ككل شي في الوجود فان السيل العرمرم لا بد ان يبتدئ بنقاط صغيرة تتجمع، ومشوار الالف ميل لا بد ان ياتي عبر خطو الخطوة الاولي.

هل السياسة بصورتها الممارسة اليوم، ما هي الا ممارسة ذكورية منفرة، وهل انخراط المراة فيها بشروطها الحالية، ليس الا تسليما بهذا الواقع الذكوري وهذه الممارسة الذكورية، التي تنظر للسياسة في ابسط حالاتها كطريث للوصول للسلطة، متجاهلة جوانبها الثقافية والاجتماعية (هنا اتماهي مع اسئلة عاليه المهمة)

النساء والسياسة:

ما هو دور احزابنا القائمة، في ابعاد المراة او في تدجينها، حيث نلاحظ ان الحزب يمكن ان يصعد المراة ويلمعها، وفي نفس يمكن ان يسقط حجرها اذا ارادت واذا تجاوزت الخطوط الحمر الاساسية، وهي بنية الوعي الذكوري والتطلع للقيادة الحقيقية ومقاربة السياسة بمفاهيم اشمل من سياسة سوق الملجة علي حد قول ابكر ادم اسماعيل.

هل قضية تمثيل النساء في مراكز صنع القرار السياسي، ليست معركة اساسية ، وهل هي مرتبطة بالمعركة من اجل الديمقراطية والتغيير الاجتماعي، ام لاحقة لها، ام سابقة لها، وهل يمكن في اطار الحركة السياسية التقليدية ان يتم تفعيل لدور المراة السياسي، ام ان هذا امر لا يمكن الحلم به .ن احباط بعض الناشطات من السياسة، بل اقول ان احباط المواطنين السودانيين منها بشكل عام، يرجع الي الواقع السياسي البائس لكل من اطراف الحكم والمعارضة المفترضة، ولذلك كا الاتجاه للعمل الابداعي والبحثي والمدني الخ ..

السؤال هل يمكن للعمل المدني ان يفرز وعيا سياسيا جديدا، او هل بوسعه وحده ان يحل اشكالات الازمة السودانية، وما هو رايك - كمشاركة نشطة - من مواقع الصحفية والنشطة السياسية، في اسهام المراة وكيفية الخروج بالسياسة من المكان الضيق الذي ادخلتها فيه ديناصورات المشهد السياسي السودانياؤمن معك علي ان السير الانحداري لحركة تحرير النساء السودانيات بدات من نظام مايو، فحتي ذلك الحين كانت الحركة تصاعدية، اما من منتصف السبعينات فقد بدات في الانحدار، ولا يغيب علينا علاقة ذلك بالانحدار الاجتماعي العام وسيادة الايدلوجيات الاسلاموية التسلطية

والتآكل الاجتماعي وسيادة الانماط الاستهلاكية بالكامل بعد انتشار ظاهرة الاغتراب وتراجع مشاريع التغيير الاجتماعي الخ الخ من العوامل.

الاستاذة نور تاور:

اؤمن تماما علي دور كل الاطراف التي ذكرت في الانتكاس بوضع المراة، وهو انتكاس متعمد سواء كان من طرف النظام الفاشي الحاكم او من طرف معارضيه المزعومين من قادة الاحزاب الذكورية المتجمعة في التجمع الوطني الديمقراطي، وقد ابتدرت بوستا من قبل عن دور التجمع لم اكمله للنهاية، وربما يفترض الرجوع اليه مرة اخري .. (تجمع الميرغتي والتجاني وقرنق .. اعدي اعداء المراة السودانية)

كنت اود ايضا ان اسالك عن دور الحروب الاهلية المستمرة في السودان، في الحط من دور المراة والتراجع به، وعن الانتهاكات البشعة لحقوقهافي مناطق العمليات والمناطق المتاثلاو بالحرب، ودور الحرب عموما في انتهاك حقوق النساء والاطفال والشباب الخ ، وهو موضوع لم يجد اهتماما كبيرا في ادبنا السياسي ..اؤكد علي قولك ان الامر ليس هو ثنائية رجل - امراة، وانما هو حفر عميق في بنيتنا الاجتماعية المتخثرة، والذي لا يستقيم الا بالدراسة الجادة لمكونات مجتمعنا السوداني في مختلف تجلياته.

اؤيد رايك ان صنع القرار في السودان محتكر من قبل نخبة تتناقص باستمرار وتتاكل، لتآكل السند الاجتماعي والفائض الاقتصادي الذي تقوم عليه وتوزعه وتجدد به نفسها، ويكون البحث عن اليات جديدة لاشتراك الناس في صنع القرار، مرتبطا بوجود اليات جديدة لاعادة بناء البنية الاجتماعية وخلق الفائض بالكسب لا توزيع الريع والامتيازات، وهو ما ظللنا نؤكده كشرط للحداثة والنهوض الاجتماعي في السودان.

اؤيد وجهة نظرك واختفائك برموزنا الوطنية مثل الاستاذة الجليلة سعاد ابراهيم احمد والاستاذة الكبيرة نجاة محمد علي، ولا انسي كذلك الاستاذة فاطمة احمد ابراهيم، والتي رغما عن انتقال خطابها للتقليدية بل والرجعية مرات، الا ان اسهامها لا ينكره الا مكابر، وكلي اسف علي التراشق الذي تم بينها وبين العديد من الناشطات، والذي لم ولا تستفيد منه الا القوي المعارضة لحقوق المراة، وقد نرجع لموقع الاستاذة فاطمة ودورها في الحركة النسوية بكل ايجابي وسلبي فيه.

ظاهرة التشهير كما قلت لا تمارس علي النساء فقط، ولكن ممارستها علي النساء تحمل معاني اكبر مما حين تمارس علي الرجال، فالمهمة هنا اخضاعية -تسكيتية ، تغترف من كل ارث اخضاع المراة، بينما في حالة الرجال تبع من حسابات سياسية، ولا تستخدم فيها الاسلحة الغليظة من نوع التشكيك في قدراتها او في انها كتبت ما كتبت او انجزت ما انجزت - يصر الكثيرون مثلا علي ان الاستاذة رودا مردا ليست امراة، بل هي رجل متخفي، يبحثوا عنه باصرار في مختلف الشخصيات، دون ان يكون لاصرارهم هذا اي معطيات ولا معني في الواقع - لا اعتقد ان قضية تمكين المراة السودانية هي قضية المراة فقط، فهي جزء من عملية تمكين المواطن والانسان السوداني ككل، وهي بالمعني دا قضية كل مواطن وكل انسان، ولذلك تجدنا لا نبخل بالراي والكلمة وهي اضعف الايمان.

لفت نظري ما سردته من تراكمات الثقافة المعادية للمراة سواء في الفلسفات القديمة او التراث العربي - الاسلامي او في ثقافتنا السودانية، ولكن في كل ثقافة هناك نقيضان، ونحن نبحث في كل الثقافات عن القيم التي تحترم الانسان وتحترم المراة بكونها انسانا.

الثورة النسوية:

ما هي مرامي هذه الثورة ؟ اعتقد ان مراميها هي تحرير وتمكين المراة السودانية، والمواطن السوداني عموما، ولكن سير الثورات كما تعلم متعرج، وطالما لم تخرج ارهاصات هذه الثورة من دائرة العفوية والتخمر، الي دائرة الفعل الواعي، فان كل الاحتمالات تظل مفتوحة، بما فيها انتكاسها او انحرافها الخ

النساء ثرن ضد الواقع المتخثر، وضد واقع الازمة السودانية، وضد وضعهن البائس في هذا الواقع، تماما كما الرجال، وان كان لهن اسباب اضافية واعمق بالثورة، وربما وعي اكبر بضرورتها، وانا لا اعتقد ان قضية تحرير وتمكين النساء السودانيات يمكن ان تتم بمعزل عن بقية قضايا المجتمع او بمعزل عن الازمة العامة، وان كانت تحتاج لادوات خاصة ولها تميزها، في اطار الازمة العامة وبقية قضايا المجتمع

اتفق معك في ذلك، وقد تسالني اذن لماذا اتيت باسماء الاخوات اماني السني ودكتورة بيان ودكتورة مهيرة علي سبيل المثال للقائمة التي صدرت بها لستة كاتبات البورد، وانا اقول ان الثورة النسوية التي تختمر تفرض نفسها علي الجميع، بما فيها بعض التيارات او العناصر السلفية او الاسلامية، ومن الناحية الاخري فانا لا اري ان في طرح المذكورات او عموم كاتبات البورد موقفا ثابتا ضد قضايا المراة، بل باستثناء بيان والتي تقدم مقاربات مختلفة وممعنة في التناقض مرات، فان هؤلاء الكاتبات لا يقفن ضد تحرير المراة وتمكينها، وان كن يقدمن اطارا اخر لهذا التحرير وفق رؤيتهن الايدلوجية والسياسية

من الناحية الاخري فان الكتابة عموما والصوت المستقل، مهما كان شكل الخطاب ومحتواه، انما هي خطوة في اتجاه تحرير وتمكين المراة، متقدمة علي مرحلة ان يتحدث الاخرون باسمها، وان يكون صوتها منخفضا او منعدما، ولذلك ياتي تقديري لكتابة هاتيك الاخوات.

إنها ثورة الحقوق: النظام العام والهندسة الاجتماعية وبيت الفنون[8]

(يقال في المثل: بحثت عن حتفها بظلفها)

إن السلطة الحالية، بعد أن مكنت لنفسها اقتصاديا وسياسيا، باستيلائها على كل مصادر الثروة، وبتدجينها للقيادات السياسية وشرائها، وبعد أن تصور الحالمون أنها ستنتقل من أسلوب القفازات الحديدية إلى أسلوب القفازات الحريرية، يبدو أنها مثل تلك العنزة التي بطرت ، فبحثت عن حتفها بظلفها، وذلك بإطلاقها يد القمع هوجاء، تضرب ضرب عمياء، وتدوس دوس عرجاء، وبإطلاقها لحثالاتها العاملة باسم الأمن على ترويع الأمن ، وتدخلها المتزايد في خصوصيات الناس، وتركها ما يهم ويمكن أن يجلب التعاطف لها، إلى ما لا يحصها و ما يجلب النفور منها، حتى من طرف من لم يعادوها لأسباب سياسية، فكان أن تضايقوا منها لتدخلها الفظ في حياتهم الاجتماعية .

مشروع الهندسة الاجتماعية الاسلاموي:

الممارسات الحالية للنظام، تحت قانون النظام العام ، وبتنفيذ شرطة امن المجتمع الخ ، ليست جديدة في ممارسات النظام ولا في نهجه، اذ هي تشكل لحمة وسداة مشروعه الانحداري المُسمي من طرفهم زورا بالمشروع الحضاري، وهي جزء من مشروع الهندسة الاجتماعية الذي هدف له النظام لتغيير تركيبة المواطن السوداني ليصبح مسخ كوز : إنسان قبيح جهول ذو بعد واحد وجلافة بادية وعداوة مع نفسه والآخرين، وهيهات .

وفي حين كان غرض مؤسسي الهندسة الاجتماعية ايجابيا لإعادة بناء المجتمعات المدمرة بسبب الحروب أو الكوارث، فإنها في يد الأنظمة الشمولية قد تحولت إلى سلاح أيدلوجي لشطب التعدد والتنوع الكامن في الإفراد و في المجتمعات، وقهر الحرية وخلق الإنسان ذو البعد الواحد، أي الإنسان الجديد كما اسماه منظري الشيوعية، فاخرجوا لنا إنسانا جلفا مدمنا على الخمور منعدم الحساسية كما تم في روسيا، أو الفرد المتوجه إلى الله والمجتمع المؤمن كما في التجربة الاسلاموية، فاخرجوا لنا أهل التطرف والصلف من أمثال جنود شرطة امن المجتمع الطفابيع .

ومشروع الهندسة الاجتماعية بدأه النظام منذ أيامه الأولى، وكانت الجهة التنفيذية له هي وزارة التخطيط الاجتماعي ، والتي كانت سوبر وزارة أو الوزارة الأم التي خرجت من باطنها معظم مشاريع إعادة صياغة المواطن السوداني على الهيئة الكيزانية المنفرة والقبيحة، ولا غرو أن كان وزيرها هو الرجل القوي في السلطة حينذاك وربما الرجل الثاني في الدولة : على عثمان محمد طه . وقد كانت تلك الوزارة (("ترمي إلى "صياغة المجتمع والدولة" بما يتسق ورؤية " الإسلاميين ")) حسبما جاء في إحدى المقالات. ومن داخل تلك الوزارة خرج كل هوس الأفكار الجهادية والفصل بين المرأة والرجل وقوانين النظام العام وامن المجتمع وقوانين الأحوال الشخصية والردة الخ بل قرارات فصل العاملين من جهاز الدولة والجيش

[8] مقال كُتب عقب اغلاق النظام لبيت الفنون واعتقال بعض المشاركين والمشاركات في نشاطاته

وأسلمته الخ ، وقد تم حل الوزارة لاحقا بعد أن ظنوا إنها حققت بعض أهدافها، وبعد المعارضة الشرسة - ولكن الصامتة - التي قادها النسيج الاجتماعي السوداني وهو يرفض فيروسات التعصب التي حاول الكيزان زرعها فيه .

إن قانون النظام العام ليس شذوذا إذن، وإنما هو جزء من بنيان متكامل لترسانة من القوانين التي تعمل لصياغة المجتمع لكي يكون مجتمعا كيزانيا - من بينها القانون الجنائي لسنة 1991 وقانون الأحوال الشخصية لعام 1991 وقانون الإجراءات الجنائية لسنة 1991م و قانون المعاملات المدنية (تعديل) لسنة 1993م و قانون الإثبات لسنة 1993م وقانون الشرطة وقوانين امن الدولة المختلفة ، وسمة كل هذه القوانين أنها اعتمدت على النهج الكيزاني المتخلف المعتمد على أغلظ الاجتهادات الاسلاموية الرامية لقهر المجتمع وخدمة الحكم والحاكم، وتجاهلت التراث القانوني السوداني والعالمي المستنير والانساني وكانت سلاحا أيدلوجيا للتمكين الاسلاموي

إن مشروع الهندسة الاجتماعية بعد 21 عاما من حكم الإنقاذ لم ينتج فقط ترسانة من القوانين المعادية للمواطن والمنحازة لأغلظ الغرائز الكيزانية ، وإنما أنتج قضاة ورجال شرطة وامن تنعدم فيهم ابسط قواعد الشرف والأمانة والنزاهة، وتتراكم فيهم ممارسات فظة من الفساد والغلظة والجلافة .. أنها أنتجت مشروعا كاملا للقبح والعنف وأعادت إنتاج الكوز القديم في شكل أكثر تخلفا وتسلطا، فالكوز القديم كما قال قائلهم حينما كانوا في الجامعات يرفع السوط مرات ويرفع السيف مرات (ضع السوط وارفع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها شيوعيا ، ضع السوط وارفع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أنصاريا) أو كما قال . اليوم فان السوط والسيف مشهران طول الوقت، ونموذج الكوز الغبي "ذو الاضنين" والذي يتطاير الزبد من شدقيه اختفى بعد أن غرقوا في ملذات البطن والفرج، واستبدلوا كوزهم ذاك بنموذج الشرطي ورجل الأمن المستلب والذي تجمعت فيه كل سلبيات رجل الشرطة التقليدي مع مطوع الوهابية المتخلف مع لؤم رجل الأمن المايوي وقساوة من يقتلوا الكلاب والقطط ويحصبوا المحبين في الإحياء بالحجارة في صغرهم ، ليتحولوا في كبرهم إلى سفاحين في بيوت الأشباح وجلادين في شرطة امن المجتمع

إن جهاز الدولة في السودان قد كان دائما معاديا للمواطن، وذلك منذ تكون الدولة الحديثة التي قامت على أسنة الباشبوزق وهراواتهم بعد 1821، ثم كرسها الانجليز وورثتها الأنظمة المدنية والعسكرية التي لم تتورع عن قتل المزارعين في جودة وضرب الأنصار في المولد وقصف الجزيرة أبا الخ وحرق الجنوبيين في الضعين الخ، عدا عن مئات المجازر في الجنوب وجبال النوبة ودارفور الخ . ثم ورث الكيزان كل هذا ودمجوه بتسلطهم وعنجهيتهم واوهامهم الرسالية - وهم اسؤأ الأرض خلقا وأخلاقا - ، ليخرج لنا مسخ مشوه جعل من السودان أكثر الدول قبحا وحزنا في العالم، وجعل من شعبه أشباح لا تستطيع أن ترفع رأسها أمام بزة شرطي .

قانون النظام العام قانون جائر:

أما قانون النظام العام فهو قانون جائر يعتمد على نفس الفلسفة القمعية التي هدفها قهر المواطن وتضييق حرياته وتعسير حياته وجعله اعزلا أمام جهاز الدولة، أو وكما كتب الزميل عبد الله عيدروس في غير هذا المكان حين قال :

(مشكلة قانون النظام العام تكمن في عدة مستويات هي:

1. فكرة المحاكم المتخصصة في حد ذاتها مشكلة وتتعارض مع مبدأ فصل السلطات الثلاث ومبدأ المساواة أمام المحاكم، إضافة لمعرفتك بما جرته هذه المسالة علي البلاد حين يصرف القضاة مرتباتهم أو بعض العلاوات من الجبايات التي تحصل من المحكومين ، مثل محكمة الضرائب، محكمة سوداتل سابقا، محكمة الجمارك ، محكمة المرور، الخ - تخصيص المحاكم إذا ارتبط كذلك بصرف ميزانيتها من الإدارة الحكومية المعنية يجعل لدي القضاة مصلحة تتنافي مع مصلحة المتهمين.

2. فكرة النظر إيجازيا في الدعوي، وهذه من إجراءات التقاضي ، حيث لا تمر القضية بذات الإجراءات التي تمر بها القضايا العادية مع حفظ حق المتهم في توكيل محامي وجلب شهود دفاع، .... الخ وإنما يمكن للقاضي أن يحكم في الدعوي ومن جلسة واحدة مما يخل بفرصة المتهم في العدالة.

3. مواد القانون في تحديد مسالة المخالفة تعتمد علي المعيار الشخصي للشرطي وللقاضي أيضا - ويظهر ذلك جليا في مسألة اللبس الفاضح حيث انه في السودان وباعتبار إن زي النساء لا يختلف فقط حسب القبيلة والجهة الإقليمية والدين فقط، ولكن حتى تباين الوضع الاقتصادي والخلفية الاجتماعية يمكن أن يجعل زيا مقبولا في بيئة محددة وغير مقبول في بيئة أخري، وحين لا يكون النص قاطعا في مسالة تحديد الزي المخالف للقانون . وحين يترك أمر تحديد مخالفة القانون للمعيار الشخصي لرجل الشرطة فان المعيار يصبح غير موضوعي ويترك لرجل الشرطة مهما كانت درجة تأهيله تقرير المخالفة حسب خلفياته الثقافية والاجتماعية والاثنية، وهذا مدخل لكثير من الظلم والتعدي علي حريات الناس) المرجع: عبد الله عيدروس: هـل شرطة النظام العام آليه قسرية لفرض سلوك اجتماعى معيـن ؟

انقلاب السحر على الساحر:

إلا إن لكل شي حده، و"الشي إن فات حدو انقلب لى ضدو" .. وهناك نقطة تحول معينة في احتمال الشعوب، لا تقبل الذل بعدها . كما إن التطور التقني وانفتاح العالم قرية صغيرة على بعضه وبروز الانترنت والقنوات الفضائية والأجهزة الجوالة يجعل من اي محاولة لخلق دولة طالبانية في عالم اليوم ضربا من الخيال . ومن الغريب إن الكيزان أنفسهم قد أسهموا في ذلك، وذلك بفتحهم مجال تقنيات الاتصال - حتى يحصلوا على أموالها - واسعا، وان حاولوا سنسرة الانترنت اثناء ذلك، وهيهات هيهات . فقد برز جيل جديد تعرف على العالم وتكسرت قناعاته القديمة - التي ساهم الكيزان نفسهم بتكسيرها في تحطيمهم العشوائي للسودان القديم - ولم يفلحوا في خلق قناعات جديدة مقنعة لذلك الجيل. وكيف يفلحوا إذا كان هدفهم قد أصبح المال والكراسي وإذا كان مشروعهم البربري قد أُسلم أمر تطبيقه لحثالات المجتمع الذين دخل بعضهم الأمن والشرطة والجيش، فخرج من بينهم سفاحي بيوت الأشباح وجلادي الجنجويد وغيره من المجارمة وشذاذ الآفاق.

إن ظروف التخلف والبيئة التقليدية في السودان قد ساعدت الكيزان في تمرير بعض خطابهم من جهة ، ولكنهم بادعاء الحداثة وبركضهم وراء المال وبمعيشتهم الاستهلاكية قد خربوا مشروعهم الطالباني من الجهة الأخرى. إلا إن جزءا كبيرا من النجاح الجزئي لمشروع الهندسة الاجتماعية الكيزاني راجع لأن خصومهم من قادة الاحزاب الطائفية لا يختلفوا عنهم كثيرا في الصلف واحتقار المواطن واعادة انتاج المحافزة والتخلف، وان خصومهم الأيدلوجيين من اليسار يشتركون معهم في نهج التسلط والتضييق على المواطن وبناء أجهزة القمع وعبادة جهاز الدولة ، ولا ننسى أن الاخيرين هم من استخدموا

أساليب الهندسة الاجتماعية في جحيم شيوعيتهم حتى أبادوا في احد تجاربهم - كمبوديا - نصف السكان. وقد استلهم من هؤلاء وتعلم الترابي كما قال مرات كثيرة، بل زعم انه في سبيل بناء دولته الإسلامية يمكن أن يموت ثلثي السودانيين ولا ندم، حتى يبني الثلث الباقي دولته الرسالية المزعومة .

إلا أن هؤلاء الطفابيع كما قلت في غبائهم وجهلهم المقيم يسعون إلى حتفهم بظلفهم، فربما كان هذا الهجوم على بيت الفنون وهذا الصلف المتكرر في التعامل مع النساء والشباب هو القشة التي ستقصم ظهر بعيرهم ، وربما كانت هذه المعركة افتتاحا لوسائل جديدة في الصراع ودخول الناس حلبة الصراع الفكري والثقافي والاجتماعي والقانوني الواضح والمباشر مع الكيزان، وهو صراع طالما تجاهلته القوى المعارضة القديمة أو هربت منه، ولا حل سوى ان تخوضه القوى الجديدة في المجتمع وان تحمل لواء. وخوض الصراع على مستوى الفكر والمشاريع والبرامج وليس فقط الشعارات وصراع الكراسي اصبح ضربة لازب إذا أردنا إن نعيش في امن وكرامة تليق بنا، واذا لم نرد ان نستبدل الكيزان بمن يشبهوهم . في هذا لا مجال للمماهاة مع خطاب الكيزان ونهجهم، وإنما المطلوب هو رفع شعارات التغيير الحقيقي والعمل الشاق طويل المدى من اجل التنوير الذي سيؤدي للتغيير، وخوض المعارك الصغيرة والانتصار فيها، فالطريق إلى الهدف يبدأ بخطوة واحدة.

لذلك فأن هناك أملا كبيرا بالتغيير نرصده تململا ورفضا لواقع القبح والعنف الكيزاني في البدء ، وخصوصا وسط الشباب الذي يظنه البعض لا منتميا وفارغا،رغم ان فيه كل الأمل، وان سكاته على رأي. ولكن هذا الامل بالتغيير مربوط بتحول حالات الاعتراض العفوي المتواترة والغضب المكتوم إلى عمل منظم من اجل ثورة للحقوق: الحقوق الشخصية والاجتماعية والاقتصادية، ومرهون بوجود برنامج بديل علمي علماني يقوم على احترام كرامة الإنسان، وتقليص هيمنة الدولة، وتقليم مخالب أجهزة القهر والقمع ، وإشاعة ثقافة التفكير بدلا من التكفير، وبذل الجمال بدلا من القبح، وتقديم العقل بدلا من النقل، ونشر الاجتهاد بدلا من الجهاد.

وماذا عن طارق الأمين وبيت الفنون؟؟

بلا شك إن بيت الفنون يشكل النقيض الكامل لثقافة القبح والعنف التي يحاول الكيزان فرضها علينا، فهو قد تحول إلى واحة للإبداع، تزهر فيه أشجار التسامح ، وتجد فيه النساء مكانهن الطبيعي المتساوي مع الرجال، إبداعا وتلقي للإبداع، كما ينشر بيت الفنون دعوات السلام واحترام التعدد وحقوق الإنسان والمواطن والفرد، وهي دعوات تقف بالتضاد مع نهج النظام الثقافي والاجتماعي.

كما إن طارق الأمين شخصيا هو نموذج حي للقيم التي يحاول بيت الفنون نشرها، فهو إنسان محب للجمال متسامح مع نفسه ومع الآخرين . يدعم الإبداع النسوي والشبابي ومواقفه من القضايا الحيوية لشعبنا لا تخفي على احد، يعبر عنها بالاسكتش والأغنية والمهرجان والموقف، لذا لم يكن غريبا إن يستهدف هو شخصيا بالأمس وان يستهدف بيت الفنون اليوم، فالكيزان يعرفون انه في مقابل فيروسات الجهل والتعصب والتطرف والقبح التي ينشرونها، فإن أمثال طارق الأمين يزرعون خميرات الجمال والتسامح والإبداع، وما بين صناع الحياة والجمال وسدنة الموت والقبح حرب مستعرة، لم يكن اعتداء الأمس القريب إلا واحدة من معاركها.

فلتكن ثورة الحقوق إذن، وحي على الكفاح، وحي على العمل.

2010-8-4

هدية النظام في 8 مارس لنساء السودان: القتل !![9]

هكذا كان منذ بدايته، ومنذ قتل الشهيدة التاية ابو عاقلة، ومرورا بمئات الاف الضحايا من النساء مجهولات الإسم، ممن قضين تحت القصف او بطلقات الرصاص او بحراب البنادق او تحت الاغتصاب، كان نهج النظام تجاه نساء السودان وتجاه أهل السودان، هو السحل والقتل.

في جبال النوبة وفي الجنوب وفي دارفور وفي الشرق وفي النيل الازرق، كانت النساء من اولى ضحايا النظام، و لا زلن.

في المدن التي جلد فيها النظام نساء السودان مليون وستمائة ألف جلدة، في عام 2010 وحده، كانت النساء من اكثر ضحايا النظام.

ستات الشاي، عائسات الكسرة، العاملات بمحطات البنزين، الشابات المثقفات المتنورات، الارامل الباحثات عن لقمة العيش، الطبيبات المحتجات على سوء الاحوال الصحية، الصحفيات ، بائعات الخمور البلدية، كلهن وعلى تنوع اعمارهم واصولهم الاجتماعية والعرقية كن دائما من ضحايا النظام، وكان دائما ما يوجه له حد سيفه ولسع سوطه.

اليوم اذ يقتل النظام عوضية، فهو يقتل فيها كل نساء السودان، او قل هو يعيد فيها قتل كل من قتلهن من نساء السودان، وكأنه يريد ان يذكرنا بأنه القاتل الساحل، المجرم الزنيم ، وأنه لا حياة ولا أمان لنا مع وجوده بين ظهرانينا، بسوطه ونطعه وسيفه ورصاصه.

كانت عوضية رمزا لكل نساء السودان، المتعلمات وبسيطات التعليم، القرويات وبنات المدن، لابسات التوب ولابسات الطرحه ولابسات الشرف المقيم .. كانت عازة وكانت مهيرة وكانت نوره وكانت مندي وكانت التاية وكانت ميري وكانت مريوم وكانت فاطمة وكانت صفية وكانت ميرم وكانت لبنى وكانت وكانت .. كيف لا وهي التي جعلت همومهن همومها .. انظروا اليها تكتب في صدر برنامجها الانتخابي لما نزلت مرشحة (عن حزب العمل القومي السوداني) ضد الطفابيع:

* الاهتمام بالمرأة العاملة وايجاد حياة كريمة وتمثيلها في دورها الرسالي.

* حماية المرأة (من الانتهاك) والاغتصاب بالقوانين الرادعة .

[9] مقال كُتب بعد اغتيال الشهيدة عوضية من عناصر شرطة النظام العام

وانظروا اليها تكتب عن الاطفال وحمايتهم والاهتمام بالحرفيين وايجاد مأوي يحميهم من حر الشمس وانظروا اليها تهتم بالايتام ودور العجزة والمسنين لتعلموا انها ابنة هذا الشعب الاصيل ، ولتعلموا لماذا اذ قتلوها فقد قتلوا فيها كل النساء ، وكل الناس .

الآن يفرض علينا النظام ان نكون او لا نكون . فاليوم عوضية واول امس التاية وبينهما الاف من الضحايا، ونحن لا نزال نعاقر الانتظار لاقزام لا يريدون ان يخرجوا ، ولا ان يرفعوا صوتهم اطلاقا، بأن العدو على الابواب وفي الاحياء وفي البيوت، وان الدم يسيل مدرارا في اطراف السودان وفي وسطه، وان الخيار هو ان يكون هذا النظام او يكون السودان، وان نكون او يكون، وان نكون او لا نكون.

يجب القصاص لعوضية ممن قتلها مباشرة ، الضابط الذي اطلق الرصاص ، والجنود الذين شاركوا في الجريمة، ولكن ايضا من قيادات النظام التي جعلت من القتل منهجا، وممن اعطت حثالة الارض السلاح، يقمعوننا به صباحا ومساء، ومن اعطتهم كل القوانين القمعية يتأمرون بها علينا، يريدون ان يحولوننا بها الى عبيد لهم في بلادنا .

فليتحرك الناس في كل مكان، في القرى والاحياء وفي المعسكرات وفي الجامعات .. لتشتعل الارض تحت اقدام الجلادين وليكن القصاص لعوضية هو بالقصاص للسودان .

فلتكن الثورة أو لا نكون .

2012/3/6

الجزء الثالث:

شخصيات ومواقف

نور تاور : جبل الماس في مفازة الناس[10]

يقولون إن جبال النوبة 99 جبلا . لو كان الأمر كذلك، لكانت نور تاور، الجبل المائة .أسمحوا لي هنا، أن احكى لكم قليلا أو كثيرا عن نور تاور .

نور تاور : جبل الماس في مفازة الناس . الباب الذي سيدخل منه بهاء الأمير الجديد، وسيخرج منه - بلا رجعة - دجل السودان "الجديد". نور تاور: رمز إكتمال السودان في أمراة، وتفرد السوداني في النوباوي/النوباوية، وعين يقين الإنسان، لما تبحث الإنسانية عن ذاتها، وتنهض للقيام من كبواتها.

قضيتان وهبت لهما نور تاور حياتها : قضية جبال النوبة،وقضية السودان . وان شئنا الحق لقلنا قضية إنسان جبال النوبة،وقضية إنسان السودان . والقضيتان شاقتان تنهد تحتهما الجبال، يخر تحتهما الرجال،ويعجز عنهما الناس. إلا أن تكون هذه الجبال - التي لا تنهد-جبال النوبة،أو جبلاً من الماس.

يكفي نور تاور فخراً،ان يديها طاهرتان من غير سؤء،لم تلطخا بدم ابناء وبنات الجبال،ولا بدم ابناء وبنات السودان. حينما طلب منها أحد قادة "السودان الجديد"،الدعم في منتصف تسعينات القرن الماضي ،قدمته دون من أو أذى . حينما قال لها ان تجند في تنظيمه ابناء الجبال، ليحارب بهم معاركه في شرق السودان،قالت له نور: لا . انها لن تضع يدها في عمل يؤدي الى موت أحد ابناء الجبال، فكفاهم ما هم فيه من موت، وكفى السودان.

عرفت نور تاور عن قرب،لمدة 5 سنوات. كانت لي معرفتها، مدرسة متجددة يوميا من حياة الفكر والشعور. شكلت نور تاور لي،أكاديمية في التواصل الإنساني،وفي معنى الأشياء،وفي الثبات على المبدأ -رغم تكالب الاصدقاء والأعداء. تعلمت وأتعلم من نور تاور كل يوم،أتعلم من صبرها الجميل،أتعلم من صمودها النبيل،أتعلم من طبعها الأصيل،واتعلم منها كيف يمكن ان يكون الناس للناس، وأن يكون الانسان جبلاً من الماس،في مفازة الناس.

حينما تحدثنا انا ونور عن الحاجة في جبال النوبة، وفي السودان،لسياسة جديدة،وأمير جديد . رأيت - كما يرى الصاحي - ان السياسة الجديدة والأمير(ة) الجديد(ة) تتجلي فيها، وقلت لنفسي ونور: صبراً صبراً -فان زمن الإنسان قادم، وزمن نور تاور قادم. قالت لي وقتها نور : أنا ؟ - وكان في قولها تواضع جبل الماس،حين يعالج قضايا الناس .

في حوار لاحق، قبل أقل من اسبوع، قالت لي نور: لقد عانى الشعب السوداني كثيرا .سإنتحر اذا اصبحت يوما،واحدة من اسباب معاناته. ومحال. فتاريخ نور تاور صفحة سمراء معفرة بغبار المعاناة،وبالدمع والعرق،من أجل ما تؤمن به،وما تعمل لأجله.

[10] مقال كتبته في الرد على هجوم على الاستاذة نور تاور في موقع سودانيز اونلاين . كوم

يظن البعض نور تاور قومية نوباوية،لا ترى العالم ابعد من جبال النوبة. ويرى البعض الأخر نور تاور قومية سودانية،ترى وتموضع مشكلة الجبال في أزمة السودان،وأزمة السودان في مشكلة الجبال. أرى انا في نور تاور نوباوية،وسودانية ،وانسانة. قد تحرر قلبها من الغل والحقد،وقد وهبت نفسها لاهلها، في كل من جبال النوبة، والسودان،والإنسانية.

في كل موقع ساهمت فيه، تركت نور بصمتها واضحة،سواء كان ذلك في تعليم الناس،او في العمل العام،او في العلاقات الخاصة. في كل مكان مرت به نور،تبقى وهج من وميضها،من وميض جبل الماس . وفي كل زمان ستمر به نور، هناك شهادة بان ها هنا مرّ انسان، وترك شيئا من نفسه للناس.

في هذا العالم الإسفيري الصغير، لم يقدم أحداُ لقضية جبال النوبة،مثلما قدمت لها نور تاور . لذلك لم يكن عبثا كلام شمس الدين السنوسي، ان جبال النوبة تعرف من هي نور تاور. هذا كله لم يجعل نور تظن نفسها محررة الجبال،وأولى الزمان وآخرته،-وإن كانت تملك كل المقومات لذلك-.بل كانت دائما تذكر جهد وفضل من سبقها وعاصرها ولحق بها،من رجال ونساء . لم أجد حتى الآن،من هو أشد اخلاصاً لقضية وشخص العم فيليب،والراحل يوسف كوة،والرمز سليمان رحال،من نور تاور . وهكذا يكون القادة، وهكذا يكون الناس، ممن يعرفوا فضل الناس.

قلت ان نور في نظري، يمكن ان تكون الأولى والأخيرة، في مضمار العمل العام في السودان، وعندما يتطرق الأمر لقضايا الناس. نور هي الأولى التي علمتنا، ان جبال النوبة تعيش على فوهة بركان، وعرضت لنا -كما لم يعرض من قبلها أحد-قضية إنسان الجبال ومعاناة أهلنا النوبة،وسبيل التحرير لهم ولنا. نور هي الأولى التى رفعت صوتها،ضد القسمة الضيزى وضد الإنقاذ الثانية، وضد ابتلاع حقوق الناس، بإسم الحرب وبإسم السلام،حينما اقعد الخوف والطمع الرجال والنساء. نور ستكون الأخيرة، في ميدان المعركة، حينما يتساقط الإنبياء الكذبة صرعى، لأنه من المحال، أن يتراجع او ان يُهزم جبلاً من الماس، خُلق من أجل الناس.

سيقول بعض الناس: ها هو فرد يمدح قائدته،او سياسي يملع رئيسته . حاشاى وحاشاها . فنور وأنا ونفر من الناس،إجتمعنا على قضية، ولو افترقنا سنفترق على قضية، هي قضية السودان، وهي قضية الناس.

لم تكن نور قدرنا لانها ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب، تدفعها الطائفة وعلاقات السحت. ولم تحتل مكانها بيننا بسبب من استلاب ايدلوجي، او انتماء جهوي او عقيدي، او بقوة البندقية العمياء . احتلت نور مكانها في قلوبنا وعقولنا، لأنها كانت - ولا تزال - الأفضل فينا ومنا ، لأنها صادقة المحيا والحجى، لأنها واضحة الدواخل جاهرة بالسرائر، لأنها تعرف - بوعيها وحسها- ما هي قضايا الجبال، وما هي قضايا السودان، وما هي قضايا الإنسان.

سيرمى البعض الشوك والأذى في طريق نور، سيودون لو يحصبوها بالحجارة، وبمفحش القول . سيود البعض لو يحرق نور او ينسفها، أو ان يعلقوا على رأسها أكليل الغار، وأن يصلبوها كما المسيح، ثم يصرخوا في القتلة: إقتلوها إقتلوها. دمها في رقابنا، وفي رقبة السودان الجديد. سيدمي الشوك قدمي نور، وستسير نور في طريق الآلام، وهو طريق كل رائد

ورائدة، لم يكذبان اهلهما. سيأتي بعض الناس بأخطاء نور الحقيقية والمتخيلة، وبجرائمها المزعومة والموهومة، وسيحاولون ان يطاردوها في حفلة قنص دموية، وان يشووها في حفلة شواء آدمية . هذا هو قدر نور، وهذا هو قدر بعض الناس.

لكن هل هناك من يستطيع ان يحرك الجبال؟ هل من حجر رخو يكسر الماس؟ هل من قوة قادرة على هدم جبل من الماس؟ هل من قوة قادرة على هزيمة صوت الناس؟ هل تأكل النار شيئا غير نفسها؟ هل تستطيع ان تخدع كل الناس لكل الوقت؟ هل يستوى الزيف والحق؟هل فحيح الأفعى ينتصر على هديل الحمام؟هل ينتصر الجديد المزعوم على الأصيل الباقي؟هل لا ينتصر الجديد الحقيقي على القديم البالي؟ اذا كانت الاجابة على اى من هذه الاسئلة بالايجاب، فان مسعى هؤلاء الناس تجاه نور تاور، يمكن أن يكلل بالنجاح . وهيهات.

يفخر بعض الناس بالجاة والمال،ويفخر البعض الآخر بالسلطان والصولجان . نحن عندما نفخر ، نفخر بالإنسان. أنا فخور إني اعيش في زمن نور تاور. ولو وقعت السماء على الارض في هذه اللحظة، او تبعثرت الأكوان . لقلت لا بأس، فقد عشت قليلا في زمن نور تاور، ورأيت فيها الإنسان.

نور تاور يا جبل الماس، نور تاور يا صوت الناس، نور تاور يا بعضنا ويا كلنا، نور تاور يا رمزنا ويا رمز الناس ، نور تاور يا خادمة الناس ويا ست الناس ، نور تاور يا سرنا ويا جهرنا ، نور تاور يا بت الجبال ويا بت السودان، نور تاور يا صوت المرأة ويا صوت الإنسان ، نور تاور يا شمعة الأمل ، نور تاور يا صيحة العمل ، نور تاور يا أولتنا وآخيرتنا، نور تاور ايتها المصلوبة فينا والموعودة فينا، نور تاور يا مفتوحة الجراح، نور تاور يا عملاقة الجناح : هزي اليك بجذع شجرة الإنسان، عسى ان تهب بعض ثمرها للسودان.

.....

يقولون : إن جبال النوبة 99 جبلا . لو كان الأمر كذلك، لكانت نور تاور ، الجبل المائة . جبلاً من الماس، في مفازة الناس !!

2007/2/20

وداعا ميريام ماكبا – وداعا يا ام افريقيا[11]

نقلت الانباء الحزينة وفاة المغنية والناشطة الجنوب افريقية ميريام ماكبا في ايطاليا بعد مضاعفات احست بها ، عقب مشاركتها في حفل مناهض للنازية والجريمة المنظمة في تلك البلاد ، وكانت وفاتها ليلة امس التاسع من نوفمبر 2008 في مستشفي بينتا غراند.

ولدت ماكيبا في 1932 من ام سوازية واب جنوب افريقي. كانت ميريام ابنة الحرية وبنت افريقيا، فقد امضت الستة الشهور الاولى من حياتها في السجن مع امها. كان ابوها الذي مات وهي في السادسة من عمرها سانقوما، أي طبيبا روحيا يعالج حسب الطب الشعبي والديانات الافريقية وتراث قبيلة الاكسوس ، وهو الامر الذي خلدته ميريام في البومها "سانقوما" وهو واحد من اجمل اعمالها. ارتبطت ميريام بالتراث الافريقي كما بالتيارات الحديثة في الغناء، فكانت مغنية افريقية ثم عالمية، وكان لها الدور المُعلّى في نقل الفن الافريقي الى العالمية.

ميريام ماكبا الحاصلة على جائزة غرامي في الغناء، وهي اعلى جائزة غنائية في العالم، ليست فقط مغنية، وانما هي صوت افريقيا الصادح من اجل السلام والحرية . غنت نضالات والام بلدها جنوب افريقيا عقودا وفي المهجر، بعد ان نزع عنها نظام الابارتهايد جنسيتها في 1960 . عاشت ميريام في عدد من الدول الافريقية، وناضلت ضد الابارتهايد بالكلمة والاغنية والفعل لاكثر من 30 عاما، حتى رأت نظام الفصل العنصري يسقط وبلدها يتمتع بالحرية. وحين رجعت الى بلدها فقد رجعت كملكة متوجة ليس فقط على عرش الغناء، وانما على قلوب اهلها الجنوب افريقين.

بعد عودة ميريام الى وطنها لم تخلد للراحة، وانما واصلت غنائها من اجل السلام والحرية، وانشأت منظمة خيرية لدعم النساء في جنوب افريقيا، وكانت تساعد المغنين الشباب والمواهب الصاعدة . كان موتها مسك الختام لسيرة حافلة بالنضال والجمال، اذ اتى عقب غنائها ضد العنصرية في ايطاليا، وهي التي كانت عدوة العنصرية الاولي وسط الفنانين، فكانت في حياتها شاهدة ضد القبح والظلم وكانت في موتها شهيدة: شهيدة الفن وشهيدة الحرية وشهيدة السلم.

غنت ميريام ماكبا بالعديد من اللغات، ومن بينها لغة الزولو ولغة الاكسوسا والسواحيلي والانجليزية والفرنسية . غنت مع العديد من الفنانين ونظمت معهم رحلات فنية عبر العالم ، مثل هاري بلافونتي وبول سيمون وغيرهم . اصدرت عشرات الالبومات وغنت في آلاف الحفلات الصغيرة والكبيرة عبر اكثر من نصف قرن من حياتها الفنية . كانت اغنية لاكتشونا للانغا هي اول عمل سجلته في 1953 مع فرقة مانهاتان بروزرس، بينما كانت اغنية باتا باتا المسجلة في عام 1956 هي اول اعمالها الشهيرة. تظل مع ذلك اغنية "ملايكا" والتي تعني ملاكي بالسواحيلي من اشهر اعمالها، وهي اغنية من تراث المغني الكيني فاضلي ويليام .

سجلت ميريام ماكبا قصة حياتها في مذكراتها التي نشرت عام 1988 بالانجليزية تحت عنوان " قصتي" ، وتمت ترجمتها الى العديد من اللغات . بعدها مرت مياه كثيرة تحت الجسر، وعاشت ميريام لعشرون سنة اخرى حافلة بالانجاز، لتشكل

[11] مقال كُب عشية رجيل الفنانة والمناضلة مريم ماكبا

بحياتها وفنها ونضالها واحدة من احسن القصص عن جمال الانسان وعن رقي الروح البشري، حيث كانت ميريام طول حياتها ملاكنا الذي خرج من بيننا، وارتقى بنا في سماء النغم وفي سماء الفن وفي سماء الحرية لدرجات عُلى.

وداعا ميريام ، وداعا ماما افريكا، ولن تموتي يا ميريام ما دام فنك حاضر بيننا، وما دامت جذوة الفن خالدة في الانسان، ودعوة الحرية كامنة في الناس.

عادل عبد العاطي

2008-11-10

معلومة بنت الميداح : ثورة في الغناء والسياسة[12]

تشكل الفنانة والناشطة والسياسية الموريتانية معلومة بنت الميداح احدى قمم الطرب الموريتاني الأصيل، ومحطة فارقة لانتقال الأغنية الموريتانية للحداثة والعالمية، ودمج تراثها الشعبي الأصيل في الاتجاهات الحديثة للتطريب.

ومعلومة بنت الميداح قد لا تكون معروفة في السودان، ولكنها معروفة في موريتانيا والمغرب العربي كأحد أهم المغنيات الموريتانيات، جنبا الى جنب وربما متقدمة على زميلاتها المبادرات ديمي بنت أبه والنعمة بنت الشويخ وعليـة بنت أعمر تيشيت وغيرهن من الفنانات الموريتانيات اللاتي يشققن طريقهن بقوة في عالم الطرب الموريتاني.

التراث والتمرد :

ومعلومة تنتمي الى بيت طرب وفن وأدب، فابوها هو مختار ولد الميداح، احد اشهر الموسيقيين الموريتانيين . أما امها عائشة بنت المبارك، وفي لقاءاتها الصحفية تحكي معلومة عن هذا التأثير الفني الذي تشبعت به، وكذلك عن تأثير الايقاعات الافريقية للموريتانيين السود أو قل بقايا الرقيق الموريتانيين والذين كانوا يعملوا في بيوت الاسر الحسانية مثل اسرة معلومة، قبل انطلاق حركة تحررهم وإعادة اعتبارهم التي لعبت معلومة دورا كبيرا فيها.

في هذا البيت الفني نشأت معلومة، وبدأت الغناء في عمر سبع سنوات، ولكنها من البداية كانت ترى لنفسها طريقا جديدا يختلف عن اعادة انتاج تراث القبيلة وغناء المقامات التقليدي، تقول معلومة عن نفسها: ((تعلمت الفن بالفطرة وكان حلم عمري أن أنجح يوما في تأسيس توجه جديد يخرج الأغنية الموريتانية من طابعها التقليدي لتأخذ شكلا ومضمونا مختلفين))

ويأتي تميز معلومة وسط غيرها من الفنانات والفنانيين الموريتانيين في ملمحين: الاول هو تمردها الفني على الاشكال التقليدية للألحان والاداء في الاغنية الشعبية الموريتانية، وخصوصا الاغنية النسوية، المعتمدة على المقامات والآلات التقليدية ، ومن ضمنها آلة التيدينيت العريقة. وادخالها الايقاعات الافريقية ضمن اغانيها، بل تلمس ايقاعات الجاز والبلوز الأفرو الامريكية، بل حتى الغوسبل واقتباسها في اعمالها.

كما يأتي الملمح الثاني لتمردها في الشق السياسي والاجتماعي، وذللك بوقوفها ضد مختلف الدكتاتوريات العسكرية وانتمائها للقضايا الاجنماعية – من خلال انتماءات يسارية سايقة وديمقراطية حالية- والانحياز للمرأة حين رفضت الطلاق العشوائي مثلا، وهي النضالات التي اوصلتها لعضوية مجلس الشيوخ كأول مغنية عربية –افريقية تصل للبرلمان، ممثلة لحزب تكتل القوى الديمقراطية - عهد جديد بزعامة أحمد ولد داده.

ثورة في الغناء:

[12] مقال تضامني مع الفنانة معلومة بت الميداح بعد تعرضها لهجوم وتهديدات من متطرفين

واذا كانت معلومة قد بدأت حياتها بالانحياز السياسي والاجتماعي لتنظيمات ثورية، فأن ثورتها الكبرى قد كانت في مجال الفن، حيث تجاوزت آلات الطرب التقليدية وغناء المقامات الشعبي الرتيب، الى غناء استلهم التغيير الشامل في الايقاعات، وشكل ثورة في الغناء الموريتاني، وواجهته معارضة عنيفة في ذلك المجتمع التقليدي المحافظ، مما دعا بعض الفنانين للدعوة لاحراقها مع آلاتها الجديدة، والاساءة اليها بشكل مخيف، كانت أبسط الاتهامات لها في ذلك هي الجنون.

وتمثل شكل آخر من اشكال تمرد معلومة في خروجها عن النص الشعري الحساني (الحسانية هي لهجة دارجة لعرب موريتانيا هي خليط من العربية والامازيغية) ، وذلك بتبسيط الكلمات واخراجها للغة أوضح من محلية الحسانية، والتي عبرت في انغلاقها اللغوي عن الانغلاق الطبقي والعرقي للمجتمع الحساني التقليدي في موريتانيا، وتحيزه ليس فقط ضد السود والبربر في البلاد، بل حتى ضد بقية العرب، باعتبار ان بعض الحسانية ينظرون لأنفسهم أنهم ارقى عروبة من بقية اخوانهم في المغرب العربي بل وفي كل البلدان العربية!.

لهذا السبب لم تجد معلومة في بداية حياتها الفنية وتمردها دعما من الشعراء، بل تهربا منهم، ذلك انهم كانوا يتخوفوا من جموحها الفني والحانها الجديدة، مما اضطرها لكتابة اغانيها بنفسها، ومن اهمها اغنية (حبيبي حبيته.) والتي تحكي فيها عن حبها لطبيب يعالج المرضي الفقراء، والتي كانت في 1986 ثورة على كل التقاليد الفنية والشعرية والإجتماعية في موريتانيا، كسرت بها معلومة كل الحواجز، واستحقت بها غضب وحقد المحافظين، ودعم الشباب والطلاب، ولم ينقذها من محاولات الاغتيال المعنوي الا تغنيها بالاغنية في مهرجان قرطاج بتونس عام 1988، واكتسابها شعبية لا باس بها في المغرب العربي دعمت موقفها في موريتنانيا.

عموما لم تتوقف جهود معلومة التثويرية للتراث الفني الموريتاني في الالحان والكلمات فحسب، بل امتدت للاداء والمولتميديا، حيث شاركت معلومة في فكرة و انتاج أول فيديو كليب لفنانة موريتانية بشكل محترف، وهو لأغنية "يودن يودن" من البوم "دنيا". كما يتبدى التجديد في حيويتها الفائقة في حفلاتها الجماهيرية والتي تجذب مئات والاف من الشباب من الجنسين، يرقصون على انغامها، مما جعل الاداء مغايرا تماما لجلسات غناء المقامات التقليدية .

معلومة والسياسة:

وتشكل علاقة معلومة بحزب تكتل القوى الديمقراطية - عهد جديد وزعيمه ولد داده علامة فارقة ايضا، فقد تصدت معلومة بفنها ومواقفها ومشاركتها في المظاهرات ضد حكم الرئيس معاوية ولد الطايع العسكري منذ بداية التسعينات، مما عرضها لحملات مضايقة وعزل رهيبة من السلطة، شملت منع اذاعة اغانيها ومنعها من اقامة الحفلات، قاومتها معلومة بتضامن الشباب وبالتمرد على قرارات المنع وعن طريق الكاسيت، وقد صدر البومها الاشهر "دنيا" في قمة حملة حصارها تلك ، مشكلا إنتصارا جديدا للفن على الطغيان.

وقد وقفت معلومة ضد الطغيان حين تراجع الاخرون، وكان لها دور مقدر في فضح ولد الطايع، مما اسهم في انهيار نظامه من بعد، رغم الفشل في ايصال ولد الدادة لسدة الحكم، وهو السياسي الذي دعمته معلومة بكل قواها، وغنت في حملاته الانتخابية، وكتبت وغنت عنه واحدة من اقوى اغانيها السياسية (حبيب الشعب).

وقد رد ولد داده الجميل حين دعم طلب ترشيحها لعضوية مجلس الشيوخ وسط معارضة عارمة من القوى التقليدية بل من عناصر نافذة في حزبه في اول عام 2007 ، حيث فازت بعضوية المجلس. ووقالت معلومة ان الرفض لترشيحها هو رفض فعلا لدور الفنان. حيث أكدت أن إن الرفض الذي قوبلت به يعود إلي أنها تنتمي لطبقة الفنانين في مجتمع طبقي. وقالت أن المجتمع الموريتاني القديم يعتبرالفنانين "مجرد ألسنة تمدح هذا الشيخ أو ذاك أوهذه القبيلة أو تلك". وأنهم لا يمنحون دورا سياسيا، و"دورهم الوحيد هو حفظ تاريخ القبيلة، وترسيخ مجدها، من خلال فنهم". وأنها الآن تكافح "من أجل أن يكون للفنان دور في صنع القرار السياسي".

وتلخص معلومة دورها في عموم التمرد على السائد ، حين تقول: " وأنا (يعني) تمردت على القبيلة وعلى قضايا المجتمع التقليدي وأصبحت (يعني) أغني باسم الشعب وللشعب وللقضايا الوطنية والقضايا الاجتماعية".

الإنتماء الاساس للفن:

ورغم انتماءات معلومة القديمة لليسار واليوم للتيار الليبرالي، الا ان دافعها الحقيقي للدخول لحلبة العمل العام يبدو انه يقوم على تطوير دور الفن ونظرة المجتمع للفنان في موريتانيا. ففي لقائها مع فضائية الجزيرة تقول عن بداية انخراطها الفعلي في السياسة "كان في عهد معاوية في كثير من المسؤولين مثلا لا يهتمون بالموسيقيين ولا بالموسيقى وكان هنالك نوع من الإهمال للموسيقى بشكل رهيب جدا" .

أما هيئة الإذاعة البريطانية فتنقل عنها قولها " أنا أمتطي السياسة من أجل الفن، لأني أري أن السياسيين الموريتانيين بحاجة إلي وجود فنان إلي جانبهم يضع لبنة لصالح الفنانين والفن في مجتمع ما يزال قيد التأسيس". كما تجاوب معلومة عن سؤال التناقض المفترض ما بين دور الفنان والسياسي حيث تقول:" لا تناقض، فإذا كان هناك حفل خيري سأكون موجودة وإذا كان هناك ما يهم الوطن أنا موجودة، وإذا كان هناك أمر علي الصعيد القومي فأنا موجودة كفنانة".

وترفض معلومة تجميد نشاطها الفني، كما فعل الكثير من الفنانين الذين دخلوا حلبة العمل العام، ولكن يبدو أن إنخراطها في العمل السياسي والعام قد جعلها تضع مع ذلك حدودا لنشاطها الفني حين ترفض الغناء في الاعراس والمناسبات الاجتماعية التقليدية، وتغني فيالحفلات الجماهيرية او التورز، بل حتى في التنازل عن العاطفي حين تقول: " سأغني فقط للقضايا الإنسانية والقومية والإجتماعية الكبري".

حصادها الفني:

انتجت معلومة اربع البومات، يشكل كل منهم نقلة فنية، وان كان احدهم يكرس سقطة سياسية، وهو البومها الثالث المكرس للتضامن مع "صدام حسين" ابان حرب الخليج الثالثة. عموما فان البومها الاول "أدن" كان هو بأكورة اعمالها – في الثمانينات- ، وفيه اغنيتي أدن وحبيت حبيبي الجميلتان. ثم جاء البوم "دنيا " في عز الحصار الاعلامي لها من قبل النظام، وفيه اغاني ملتزمة ومرمّزة . ثم كان الالبوم الرابع نور (2007) وقد خرج ابان حملتها الانتخابية، ويحمل اناشيد صوفية وغوسبل واغاني اجتماعية.

وقد غنت معلومة بعض اغاني فيروز، ووجدت تشجيعا ودعما منها، حين وصفتها فيروز انها صوت صادق. كما دعت الفنان راغب علامة لزيارة موريتانيا، وقام بتلبية الدعوة . قد نفذت معلومة رحلات فنية كثيرة "تورز" داخل وخارج موريتانيا، كما ساهمت في مهرجانات عدة، وعرضت اغانيها في فضائيات مختلفة، مما حقق لها شهرة كبيرة في المغرب العربي ومعرفة لا باس بها في البلاد العربية، وتكاد تعتبر اليوم الفنانة الموريتانية الأشهر خارج بلادها.

التحية اذن لمعلومة في جهدها الفني والسياسي، ولكل شبيهات معلومة، ممن يحملن راية التغيير والتجديد ، في الفن او في الحياة الاجتماعية.

2008/9/10

فاطمة بنت البري
او ليليث الثانية في الذهن الذكوري "الصوفي"

مقدمة :

رغماً عن الطابع التسامحي الكبير الذي يتميز به الفكر الصوفي، إلا انه مثله مثل فكر السنة، يتميز بتحامل كبير على المرأة ، أو إهمال لها على الأقل، وهو شيء غريب لفكر كان يقوم على المغايرة وكان رجاله نفسهم عرضة للاضطهاد في حالات كثيرة.

فغير إشارات قليلة من طرف الشيخ محي الدين ابن عربي لبعض من شيخاته الجليلات، وحديثه المتعاطف والمنطلق من احترام كبير تجاه زوجته مريم بنت محمد بن عبدون وأختيه ام علاء وام سعد، وحديثه الممتلئ بالحب والشوق والاحترام عن حبيبته / زوجته النظام التي افترق عنها وكتب فيها "ترجمان الأشواق"، لا نجد اهتماما كبيرا بالمرأة عند كبار الصوفية. بل أننا نجد ابن عربي نفسه متحاملا على المرأة مرات رافضا ولايتها ومنظرا لدونيتها ، مما يدلل على أن موقفه المتعاطف والمحب للنساء القريبات منه لم يتسع ليشمل كل جنس النساء، وان نظرياته الدينية والفلسفية التي قلبت المفاهيم السلفية، لم تمتد للحقل الاجتماعي لتكون ثورة أخرى تجاه وضع المرأة المجحف في المجتمع وصورتها المشوهة في الفكر الديني.

أما المثال الأكثر سطوعا للموقف غير المتسامح لدى بعض الصوفية تجاه المرأة، فأننا نجده في التعامل مع الشيخة فاطمة بنت البري، وهي شخصية مهمة في التراث الصوفي، كان يمكن أن تعادل موقع رابعة العدوية – التي يعترف بها الصوفية - ، إلا أن موقف بعض المتصوفة من تلك الشيخة قد كان عدائيا وغريبا، هادف إلى تشويه صورتها ومبني على أكثر التصورات الذكورية جلافة، وذلك فقط لإثبات ولاية احد الشيوخ الآخرين، وان كان هناك تيار معاضد لها سواء في التأريخ لها أو في الولاء، سنتعرض له في آخر المقال، كان جله من النساء.

من هي فاطمة بنت البري؟

تتعدد الروايات وتتناقض عن فاطمة بنت البري، ومن ضمن ما اطلعت عليه وجدت أكثر الروايات تتفق في وصف بدايات نشاطها وما يُسمي ب"فتنتها" ، وان كانت تختلف في مآلات حياتها ونهايتها. في هذا الإطار رأيتُ أن اغلب الروايات لا تحكي عنها باستقلالية أو حيدة، وإنما في إطار الحكي عن سيرة احد كبار الصوفية وهو الشيخ احمد البدوي، الذي "هزمها وقضى على فتنتها" كما تقول الرواية، أو قل انتصر للمنهج الذكوري والخيال الذكوري، كما يظهر في الروايات، لأننا لا نعرف ما الذي تم في الحقيقة ، فالتاريخ في العادة يكتبه المنتصرون والرجال، والروايات الصوفية ملئية بالصور الخيالية والاسطورية، مما يجعلها غير صالحة تماما لكيما نستخدمها كمرجعية تاريخية .

عموما تجمع الروايات أن فاطمة بنت البري قد كانت امرأة فائقة الجمال عظيمة المال شريفة الحسب والنسب ذات علم ودين وكرامات خارقة ، وصلت من كراماتها كما تقول في بعض الروايات أنها " قد حصلت على جرة مملوءة "بماء الحياة" من نبع الفردوس من الجنة " . وتجمع الروايات انه كان لها أتباع وأهل يناصرونها ويقفون معها، وفي روايات أخرى انه كان لها خداما من الجن هم ضمن إتباعها من "أهل بري ونعيم" ، كما جاء في احد الروايات الميثولوجية.

ولا نعرف بالتحديد تاريخ ولادة ووفاة فاطمة بنت بري، ولا أصلها حتى ، حيث تقول بعض الروايات أنها أتت من بلاد فارس،وتقول أخرى أنها من العشائر العربية في شمال العراق، بينما تقول روايات ثالثة أنها كردية. كما لم تتفق الروايات على تحديد مكان إقامتها وممارستها سلطتها الروحية والزمنية، إلا أنها تجمع كلها على انه كان بشمال العراق، فمرات تُذكر الموصل ومرات يقال ارض العشائر بشمال العراق، بينما يقول البعض أنها كانت تحكم بكردستان في شمالي العراق، وهناك حديث عن قصر لها ببغداد. إلا انه من الثابت أن لبنت بري ضريحا في فلسطين في قرية زكريا، ولا اعرف أن كانت ماتت هناك وأقيم على قبرها ضريح – وتكون في انتقالها هذا مثل رابعة العدوية التي ماتت أيضا بفلسطين رغم أنها كانت تسكن البصرة اغلب عمرها- ، أم أن الضريح قد أُقيم على شرفها وان لم تُقبر فيه، كما هو الأمر في معظم الحالات .

وفي مقال عن الادب الشعبي نجد الكاتب يلخص قصتها ويقول عنها : ((هناك ألوان من التعبيرات الغنائية الشعبية ترتبط بالقصص الدائر حول السيد البدوي وكراماته، وبهذا اللون من الأداء الأحمدي تروي قصة فاطمة بنت بري مع السيد أحمد البدوي وتنشد في المناسبات ذات الطابع الديني الشعبي.

وفاطمة بنت بري امرأة حازت الثروة والجمال والعزوة، وكانت تنفرد بالسلطة في إقليم وحدها، قيل إنه في شمال العراق في أرض العشائر. ويبدو أنها امتلكت بجانب سطوة جمالها ونفوذها قوي روحية أيضاً، فقد أخذ كثير من الأولياء ورجال الطريق ينجذبون إلي ديارها ويسعون للقرب منها، فكانت تخضع كل واحد منهم لاختبار إذا أخفق فيه تسلبه «شربته»، أي قواه الروحية. وكان ذلك الاختبار هو مجرد المثول في حضرتها والتطلع إلي بهائها، والبادي أن كل أولياء المنطقة وعبادها رسبوا في الاختبار، الأمر الذي ضج منه الجميع، ومن ثم لجأوا إلي السيد أحمد البدوي واستنجدوا به ليرفع عنهم هذا الامتحان. وعندما يتوجه السيد البدوي إلي ديار فاطمة بنت بري، فإنه يلجأ إلي عدة إجراءات وقائية حتي يتجنب مواجهتها واتبع استراتيجية الانزواء والتخفي إلي أن تمكن من سحبها إلي المرعي الذي يقيم به وأبعدها عن قصرها وعالمها، إذ ذاك تمكن من الانتصار عليها وجعلها تعيد «شرب» الأولياء إليهم، الذين قيل إنهم تجاوزوا الأربعين.

وتلخص الأبيات المغناة التالية أزمة القصة

"وقال له رح لفاطمة بنت بري / جمالها خلته يفتن ويغري / بنظرة أبهة في القلب تسري / وتأسر كل من شاهدها دوغري / وعمره يوهبه عشان رضاها / رجال أحوال بهرهم نور جبينها / وقعوا في الهوي عشان عيونها / وسقطوا لما سقطوا في امتحانها / ودي خصلة علي الأيام تشيلها / حرام تفضل كده علي هواها / مفيش غيرك حايتولي أدبها / يرجع عقلها ويعيد صوابها / ويبعد عن غواية الخلق بابها / ويمكن أنت في إيدك دواها".))

أسباب الخلاف مع شيوخ الصوفية:

هناك روايتان اساسيتان عن سبب الخلاف بين فاطمة بنت البري وشيوخ الصوفية في زمانها ، حيث تقول الرواية الأولى والتي يبدو أنها متعاطفة بشكل ما مع بنت البري، أن السبب مجرد غيرة من هؤلاء ورغبة في مشاركتها فيما حصلت عليه برضا من ربها وبكراماتها ، أي ماء الحياة، أو كما تقول الرواية:

((. لقد كانت الشيخة فاطمة بنت بري من أجمل النساء وكانت درويشة، وفي يوم من الأيام كان مشايخ الصوفية الكبار (البدوي والرفاعي والدسوقي) مجتمعين في سهول مابين النهرين في العراق ، وقد علم هؤلاء أن الشيخة فاطمة قد حصلت على جرة مملوءة "بماءالحياة" من نبع الفردوس من الجنة، ولكنها أرادت ان تشربها كلها لوحدها دون أن تترك شيئا للآخرين. ولكن هذا بالطبع لم يعجب المشايخ فقرروا أن يذهب أحدهم للتفاهم مع الشيخة فاطمة وذهب الرفاعي ولكنه كان خائفا من النظر إليها حتى لا تصيبه الفتنة ،وكذلك ذهب الدسوقي بعده ايضا ولكنه لم يفلح في إقناعها. وهكذا لم يبق إلا الشيخ البدوي الذي لبس أسمالا بالية ملأى بالقمل وجاء إلى قصرها ببغداد، وطبعا لأنها درويشة فقد عرفته على الفور، وطلب منها أن تعطيه ماء الحياة فرفضت ورفعت برقعها ولكن الشيخ البدوي لم يتأثر بجمالها وصرخ قائلا " يا أرض ابلعيها" ، فبلعتها الأرض إلى ركبتيها وعندها سألها عن الماء ولكن بدون فائدة وعندها أمر الأرض أن تبتلعها فابتلعتها إلى وسطها وفي المرة الثالثة إلى صدرها وثدييها وعندها قالت له "هل تتزوجني؟" فطلب منها أن تمد يدها فمدتها إليه فبصق فيها فاخترقت البصقة يدها ووقعت على الأرض.

وعندها قال لها " إن يدك لم تستطع أن تتحمل بصاقي فكيف ستتحمليني في الزواج ؟" ولكنها استمرت في عنادها ورفضت إعطاؤه الماء الذي طلب ، ولكن عند المرة الرابعة وعندما وجدت أن الأرض ابتلعتها إلى عنقها أمرت الخادمة أن تأتيها بالجرة.)) (المرجع 1)

أما الرواية الثانية فغير متعاطفة معها على الإطلاق، إذ مع تسليمها بحظ المرأة الكبير من العلم والتدين والكرامات ، إلا أنها تعتبرها قد اغترت وطغت ، بل أنها تكاد تصورها كغانية تستغل جمالها للإيقاع بالرجال وكسب ولائهم، وتراها كرمز للشر، حيث تقول هذه الرواية وهي تحكي عن السيد احمد البدوي "قاهر" فاطمة:

((وفى أم عبيدة توجه إليه النداء الباطني – كما تقول الصوفية – من السيد أحمد الرفاعى يشير عليه بالذهاب إلى فاطمة بنت برى بالعشائر في شمال العراق كي يقوم سلوكها ويؤدبها وهذا في الواقع كان امتحانا عليه أن يجتازه ليكون قطبا صوفيا. هنا يفترق البدوي عن أخيه الشريف حسن.

ويعود أخوه إلى مكة بينما يواصل السيد مسيرته إلى فاطمة بنت برى. ولقاء السيد بفاطمة بنت برى معناه انتصار الخير على الشر. فكما يقول الإمام الشعراني كانت امرأة ذات جمال عظيم بديع وكانت تسلب أحوال الرجال فسلبها السيد حالها.

فكانت فاطمة بنت برى سيدة تمتع بقسط وافر من الجمال والمال وكان الاختبار الذي تمتحن به كل من يريد أن يتتلمذ عليها هو موضع الحسن الذي تتمتع به من نفسها فيقع فيها من يطيل النظر إليها وهنا لا يصلح أن يكون صوفيا مؤمنا لأنه ضعيف القلب سريع التأثر.

وقد تجمع حول بنت برى قومها وأنصارها يؤازرونها في مسلكها الخاطئ وقد أشار قطبا التصريف الرفاعى والجيلانى على أبى الفتيان سيدي احمد البدوي بدرء هذه الفتنة، فذهب إليها سيدي أحمد البدوى بعدما ودع أخاه حسن الذي عاد إلى مكة.

وروى الرواة لقاء السيد البدوي بفاطمة بنت برى ويقولون انه ما أن وقع بصرها عليه حتى أحست بنهاية أمرها حيث وجدت ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال لا يعدو أن يكون ذرة بجوار هذا الجبل الشامخ من الصلابة والإيمان، فلقنها سيدى أحمد البدوى هي وعشيرتها وآمنت بولاية السيد أحمد البدوي وصلاحه وعدلت فاطمة بنت برى عن خطتها والتزمت جانب الحق واتبعت طريق الشرع وقالت "اشهدوا على يا جميع من حضر أنى ما عدت أتعرض لأحد من الرجال وأنا استغفر الله بداية ونهاية وفرضا عن كفاية"..)) (المرجع 2)

اللقاء مع الشيخ احمد البدوي :

الروايات الموثقة لا تحكي كثيرا عن اللقاء بين بنت بري والشيخ البدوي، فنجد رواية الشيخ عبد الوهاب الشعراني مختصرة ومتحفظة حيث يقول : ((وذهب سيدي أحمد رضي الله عنه إلى فاطمة بنت بري وكانت إمرأة لها حال عظيم وجمال بديع وكانت تسلب الرجال أحوالهم فسلبها سيدي أحمد رضي الله عنه حالها وتابت على يديه أنها لا تتعرض لأحد بعد ذلك اليوم وتفرّقت القبائل الذين كانوا اجتمعوا على بنت بري إلى أماكنهم وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء)).

اما الروايات الشعبية – والتي وجدت مع ذلك طريقها للتوثيق ، فهي تجعل من ذلك اللقاء معركة ملحمية حامية الوطيس، فالشيخ البدوي وفقا لتلك الروايات يذهب بتكليف مباشر من الشيخين الرفاعي وعبد القادر الجيلاني، واللذان يخوفانه من سحرها وقونها، ويعدانه بالمؤازرة ، حيث تقول الرواية :

((ولما وصل رواق أم عبيدة وزار سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه حضر إليه سيدنا أحمد الرفاعي في المنام وإلى جانبه سيدنا عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنهما وقالا لـه يا أحمد: الآن توجه إلى فاطمة بنت بـرّي وتوقّبها فإنها صاحبة سر وحال كبير ، ولكنها أعجبت بنفسها فقتلت الأبطال وأصحاب الأحوال وسيطرت عليهم. اذهب إليها وأدبها ، وإن وقعت بضيق فنحن بجانبك. وقال سيدنا عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه : لابد أن ترى مأزقاً كبيراً ، إنها فاطمة بنت بري لها قوة عجيبة ، إذا نظرت للرجل قتلته فاحذر منها وإذا شعرت بالضيق أنا أول الناس آتيك ... وعلى كل حال ليس هناك أحد مجهَّز لهذه المهمة سواك يا أحمد، وهي صاحبة جمال خارق وكل من نظر إليها يفتتن بها وأنت قد هيأك الله عزَّ وجل فلا تغريك النساء ولا تنظر إليهن بشهوة أبداً (((المرجع 3)

الشاهد هنا أن هذه الرواية تشنيعية لدرجة كبيرة، ففي حين قالت الروايات السابقة مرة أنها ظفرت بماء الحياة وأرادت أن تستأثر به لنفسها، ومرة أخرى أنها كانت تسلب أحوال الرجال – أي تنتزع قوتهم الروحية وتحولها لنفسها - ، نجد هذه الرواية الأخيرة تذهب لأنها كانت تقتل الرجال قتلا. كما نلاحظ ان الصراع يتحول تدريجيا إلى صراع نساء ورجال، وان فاطمة هنا ليست وليّة تسلب أحوال الرجال أو تحصل على ماء الحياة بولايتها، وإنما مجرد امرأة فاتنة تركز على استثارة شهوة الرجال.

وتمضي الرواية لتحكي بحبكة عالية عن تلك الملحمة من الصراع، بين البدوي وفاطمة. ففاطمة ترى في المنام ان البدوي سيهزمها ويقضى عليها، وترسل أعوانها للبحث عن الغرباء – هذا يذكرنا قصة فعل فرعون مع الطفل موسى موسى او هيرود مع الطفل عيسى الخ - . ولكن القصة تدخل في التناقضات، ذلك أنها لما تظفر به بعض تلميذاتها و"كلهن صاحبات جمال وصاحبات حال قوي"، ويجئن به مأسورا مخفورا، لا تقتله رغم ادعائه الخرس والبله وإنما تطلب منه الزواج منها وتبدأ في إغرائه . تقول الرواية انه بعد أسره وضربه من قبل التلميذات ((أمسكن بيده وأخذنه إلى فاطمة فلمَّا رأته نظرت إليه فرأته نفس الرجل الذي رأته في المنام ، فصاحت صيحة عظيمة وخرَّت مغشيَّاً عليها فلما أفاقت من غشيها قالت له : أهلاً وسهلاً بحبيب القلب أنت صاحب السر القوي وأنت أحمد البدوي العظيم ، أنا عرفتك ، عرفتك يا فحل الرجال ، وأنت جئت لتقهرني ولكن يا بطل لا تقتلني ، وأطلب منك الزواج فقد عرض عليَّ الكثير من الناس الزواج وأعطوني أملاكهم وأرزاقهم فنظرت إليهم بطرف عيني فقتلتهم بالحال بدون سهم أو نبال ... فنظر إليها سيدنا أحمد ولم يرد عليها بكلمة واحدة فأخذت تظهر له عن جمالها ، وكشفت عن وجهها ثم أظهرت شعرها حتى ظهر جمالها الفتان ، فقال لها سيدنا البدوي في قلبه دون أن يتكلم : إنك تغري غيري أما أنا فلا تغريني أنت ولا الدنيا كلها)) (المرجع 3)

ولا تكون الرواية منطقية، ففاطمة بنت البري رغم وجود الآلاف من الأعوان حولها ، بل رغم انها " سيطرت على الجن والمردة" ، إلا أنها تذللت وتضرعت وطلبت الزواج وحاولت الإغواء، ورغم أنها عرفت البدوي يقينا، إلا أنها مع ذلك تترك الرجل بناء على نصيحة من نقيبها ليعمل راعيا لإبلها، حيث تسلمه سبعة آلاف من الإبل يرعاها في البداية دون قيد، ثم يقتلها كلها في النهاية دون سبب، ويخطف قلب فاطمة بنت البري حتى تاتي له طائعة في مكان الرعي حيث تتم المعركة الكبرى.

لنترك تلك التناقضات مع ذلك، فالميثولوجيا لا يشترط فيها ان تكون متماسكة منطقيا، ولنواصل في القصة. ونسبة لملحمية هذا الجزء فاني انقله كاملا لما فيه من صور فنية بديعة ومبالغات خلقها الخيال الشعبي لتصوير تلك المعركة الكبرى بين بنت البري والشيخ البدوي:

((فنظرت إلى الفرس فتوجهت بإذن الله تعالى إلى سيدنا أحمد البدوي رضي الله عنه فقال لها النقيب : يا سيدتي هذا الرجل الراعي أخرس أطرش أبله فلو تكرمت عليه وقرأت له حتى يشفى وتظهر كرامتك أكثر مما كانت فإنه يخدمك والخادم يستحق الرعاية. فقالت له : إن لم يكن ذلك الرجل أحمد البدوي حقيقة فإنه سوف يشفى فوراً ، أما إذا كان هو فإني لازلت خائفة منه وإن قلبي مقبوض عليه ، وأخاف أن يكون هو الذي قبض على قلبي. فلما وصلت إليه ورأت الجمال كلها قد ماتت غضبت وقالت للنقيب : سأقرأ له حتى يشفى ولكنها أضمرت شراً في نفسها فقال له النقيب مشيراً إليه : أن أبشر قد جاءك الفرج والشفاء على يد فاطمة فابتسم سيدنا أحمد رضي الله عنه وأرضاه ولم يرد عليها بكلمة واحدة ، فرفعت فاطمة يدها في الهواء وإذ بكوز ماء في يدها فقرأت عليه وقالت له : تعال واشرب من هذا الكوز . فاقترب منها سيدنا أحمد البدوي وأخذ الكوز من يدها وضربه في الهواء فلم يظهر له أثر وعاد الكوز من حيث جاء ، ثم نظر إليها نظرة غضب وصاح صوتاً وإذا بالأرض قد انشقت وابتلعت فاطمة بنت بري إلى رقبتها ، فلما رأت ذلك صاحت يا آل بري يا آل نعيم أدركوني. قال سيدنا أحمد : فما رأيت إلا الألوف المؤلفة من المردة والجن والإنس قد امتلأت بهم الصحراء وقد أظلمت الدنيا وكأنها الرعد القاتل فأيقنت بالهلاك ... وعند ذلك الوقت فكَّ سيدنا أحمد

اللثامين عن وجهه وصاح بأعلى صوته : يا آل علي يا آل فاطمة الزهراء يا آل الحسن يا آل الحسين يا آل زين العابدين عليهم السلام أجمعين ورضي عنهم. ونادى أجداده ثم صاح أين أنتم يا حماة الـــعـــــــراق، يا من وعدتموني وتركتموني. لقد جاءني الهلاك ووقعت في الورطة . أين أنت يا عبدالقادر الجيلاني (قدس الله سره العزيز) ، ويا أحمد الرفاعي (قدس الله سره العزيز) أين انتم يا أولاد عمي ... فما أن أكمل كلامه حتى رأى سيدنا عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه وهو يرعد ويـزبـد ويحمل راية خضراء ، وعلى يمينه سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه وعلى يساره بقية الأقطاب وقالوا : أبشر يا أحمد فإننا جئناك بإذن الله تعالى ، فلمَّا رأى آل بري وآل نعيم الجنود الإلهية لاذوا بالفرار ، وصاحت فاطمة بنت بري أسألكم بالله أن لا تقتلوني إني تائبة إلى وجه الله عز وجل ، يا أحمد : أسألك بالله إني تائبة وأني أعلم أنك سوف تقهرني) (المرجع 3)

مصير فاطمة بنت بري :

بعد هذه الهزيمة المروعة من خطف قلبها ثم تغطيس "حجرها" لا يكون إلا الاستسلام.. ونلاحظ هنا كيف تصور الرواية فاطمة مرعوبة خائفة، وكأنها ليست تلك التي كانت تقتل الرجال دون نبال، كما نلاحظ أن اكبر أهل الصوفية الذين اتحدوا ضدها – الرفاعي والجيلاني والبدوي – سيبدون أكثر نبلا منها وسيعفون عنها، حتى تكتمل دائرة تصويرها في صورة الشر المطلق وتصويرهم في صورة الخير المطلق، حيث تقول الرواية:

((فقال لـه سيدنا عبدالقادر الجيلاني (قدس الله سره العزيز) وسيدنا أحمد الرفاعي (قدس الله سره العزيز) ورضي الله عنهما يا أحمد إننا لا نقتلها لأن إسمها فاطمة ، وإن جدتنا فاطمة ، وإكراماً لأسمها لا نقتلها وطالما إنها تابت لوجه الله تعالى .

عند ذلك قال لها سيدنا أحمد البدوي (قدس الله سره العزيز) ورضي الله عنه : تركتك لوجه الله على أن تتوبي وتعتقي الرجال وتعملي برأس المال الذي عندك وحدك لله عزَّ وجل ، فقالت لـه يا أحمد : لو تتزوجني لأصبحت خادمة عندك. فقال لها : إني لست للنساء ولا أفكر بالنساء ولو خطر لي النساء لتزوجتك ، ولكني أعرّف نفسي بأنني لله عزَّ وجل فقط ، ولا أريد أن أتزوج أبداً ، فارجعي إلى مكانك وتوبي إلى الله عزَّ وجل فإني أعتقتك لوجه الله وإكراما لأولاد عمّي وإكراماً لجدتي فاطمة الزهراء رضي الله عنهم((. (المرجع 3)

هنا نلاحظ إن فاطمة لم تنهزم فقط، وفقا لهذه الرواية، وإنما أعطت الدنية من نفسها. فهي بعد أن كانت قاهرة للرجال وتقتل بلحظها "دون نبال" من يرغب في زواجها، تطلب من الشيخ البدوي الزواج منه، بل تقول أنها ستصبح عبدة له لو تزوجها (هل الإسلام يحض على أن تكون المرأة عبدة أم ينبغي إن يكون بينها والرجل مودة ورحمة؟) . بل تذهب الرواية الأخرى إلى أن جسمها لم يتحمل بصقته، فكيف تكون زوجة له ؟ وكأن الراوي ينسى انه لم تتم هزيمة هذه الشيخة إلا بتحالف ثلاثة من اكبر الأقطاب، وان تلك المرأة سرها باتع حتى هزمت الدسوقي نفسه مرة والرفاعي مرة أخرى حسب بعض الروايات، ولكن جسمها مع ذلك لا يتحمل "بصقة" البدوي، فتأمل .

الشاهد أن هده القصة معطونة تماما بالأيدلوجية الذكورية، ويتضح فيها تماما خوف وتهيب وعُقد بعض الرجال من المرأة القوية ذات العلم والجمال، كونها تشكل تهديدا شديدا لمواقع الهيمنة الذكورية، لذلك كان لا بد من هزيمتها وإذلالها ولو في

الخيال. هنا لا يكون القتل الجسدي هو المرغوب، وإنما القتل المعنوي هنا المطلوب، وتفرق شمل من يتبعها هو المطلوب، وتصويرها في النهاية بصورة الخانعة الذليلة التي تريد أن تكون عبدة لرجل، بعد أن كانت تملك المال والكرامات والرجال.

إلا أن للصورة وجهها الآخر، فمن الواضح أن كل أتباع فاطمة لم يتخلوا عنها، حيث تقول الرواية الوحيدة المتعاطفة معها، والتي حكت عن ماء الحياة، انه بعد اغتصاب ماء الحياة منها شنت فاطمة الحرب ولا تزال ضد أولئك الشيوخ، وان طائفتها لا تزال موجودة، وان حربها معهم قائمة إلى اليوم، بمعاونة الشيخ العجمي، وتحديدا نقرأ :

((ولهذا فإن الشيخة فاطمة بنت بري على عداوة شديدة مع هذه الطوائف الثلاثة "البدوي والدسوقي والرفاعي" تهاجمهم من السماء وترميهم بالحجارة ولهذا فإن مشايخ هذه الفرق ينظرون دائما إلى السماء خائفين من حجارة فاطمة بنت بري. وفاطمة بنت بري تتبع الشيخ العجمي... وفرقة بنت بري وفرقة العجمي فرق صغيرة، والشيخ العجمي شيخ سريع الغضب ولا يسامح الإساءة أبدا.)) (مرجع1)

ويبدو أن اغلب أتباع طائفة فاطمة بنت بري اليوم من النساء، حيث يقول مؤرخ قرية زكريا ، الذي ربما وقع بصورة عفوية على طبيعة ذلك الصراع الذكوري ضد الشيخة فاطمة:

((من المعروف أن ألأولياء في العادة يكونون من الرجال، ولكن يحدث في بعض الأحيان وإن كان هذا نادرا أن الولي يكون امرأة. وفي هذه الحالة فإنه يبنى لها مقام مثل ما يبنى للرجل ولكن زوارها يكونون من النساء فقط. ويوجد مثل هذا المقام في قرية زكريا للشيخة "فاطمة بنت بري". وتشعل النساء المصابيح هناك ولا يجرؤ أي رجل أن يقترب من المكان أو أن يلمس أغصان الشجيرات أو الأشجار التي تنمو هناك, وإذا خاطر أحد الرجال وتجرأ ودخل إلى كهف المقام فسوف يصاب بالحمى ويفقد عقله(يختل) ويفقد القدرة على الفهم. وإذا كان القادم غريبا فإنه يتم تحذيره من قبل الفلاحين. وعندما تقوم امرأة بحلف يمين في داخل المقام فإنها يجب أن تغادر المكان بوجهها رجوعا إلى الوراء.)) (مرجع 1)

فاطمة وليليث ورابعة العدوية:

تكاد صورة فاطمة بنت بري في أدب الصوفية، والتشنيع الذي تم تجاهها، تشابه صورة ليليث في التلمود والكتابات اليهودية ، وقد كنت كتبت عن ليليث من قبل والتشويه الذي تم لصورتها، في مقال قصير سابق . وليليث حسب الميثولوجيا اليهودية هي المرأة الأولى التي خلقت مع ادم ، ولم تخلق من ضلعه بل من الطين مثله. يقول العهد القديم في سفر التكوين ((فخلَقَ اللهُ الإنسانَ على صورَتِه، على صورةِ اللهِ خلَقَ البشَرَ، ذَكَرًا وأُنثى خلَقَهُم.)) . ثم جرى أنها تمردت على ادم لما أراد إخضاعها جنسيا، فاشتكى آدم إلى الخالق فخلق له الله حواء من ضلعه، وكانت له مطيعة، وهربت ليليث لساحل البحر حيث عاشت مع بناتها والمردة والشياطين. أسطورة ليليث اسطورة طويلة لكن أقول باختصار انه تم تشويه صورتها بالكامل في الأدب التلمودي اليهودي، رغم التناقضات الواضحة في القصص عنها، والتي تكشف أن ليليث كانت مظلومة تماما، وان ما وقف ضدها هو نفس العقلية الذكورية، مما كشفناه في كتابتنا عن ليليث .

وإذا كانت ليليث قد وصفت بأنها الفاجرة وإنها رمز الشيطان وأنها الحية الأولى الخ ، فقد تم تصوير حواء بصورة أفضل، رغم محاولات تشويهها هي الأخرى وتحميلها مسؤولية أكل التفاحة او الثمرة المحرمة في الميثولوجيا اليهودية. وعموما فان اليهودية بها تراث عنيف مضاد للمرأة، وفي قصة الملكة البابلية وَشْتي في سفر استر،التي رفضت الخضوع لنزوات

زوجها الملك ، مما اعقبه عقابها عن طريق زواجه استر الخاضعة، نموذج سافر للموقف واللغة المعادية للمرأة، مما يطفح بها ذلك السفر، وعموم العهد القديم، وهو ما قد أرجع له في المستقبل .

هنا أيضا – أي في الأدب الصوفي - قد تم تصوير فاطمة هنا كرمز للشر، أي كصنوة لليليث، بينما تم تبني رفيقتها رابعة العدوية والتي تعادل حواء في مثل هذه المقارنة، كشيخة معترف بها من قبل الصوفيين. لقد حققتُ في حياة المرأتين ورغم الطابع الاسطوري للحكايات عنهن، فانه من الواضح أن فاطمة كانت تمثل تحديا للعقلية الذكورية، فهي قد ملكت وتجبرت، وكانت لا تخجل من جمالها ، بل ستعمله كسلاح، حسب تلك الروايات. وربما هذا ما استوحاه بيرم التونسي في قصيدته عنها التي غنتها دنيا زاد في فيلم الشيخ البدوي، والتي تبدأ بالبيت "يا بنت برى يا موصليه ** سلطان جمالك حاكم عليا"

بالمقابل كانت رابعة العدوية مستضعفة مستدلة، وكانت مستوحدة دائما، شبه غائبة وليس لها سلطة على احد، لذا فمن السهل أن يتم تقبلها – على سبيل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة – ضمن قائمة الصوفيين الكبار، كون تصوفها فردي ولا طريقة ولا أتباع لها، بينما تم تشويه صورة من كان لها الأتباع والسلطة، وكان يمكن أن تنافس وتقود، ومن سلبت أحوال وعقول الرجال، ومن حصلت على ماء الحياة.

تمت حملة التشويه التاريخية إذن، ولكن المجتمع لا يتكون من الرجال فقط، ولا يحكم الذهن الذكوري الجميع . لذا فبقدر ما كان ممكنا أن تصلنا شذرات من قصة ليليث المغايرة او تفسيرات مغايرة للنص – أي التفسير للأسطورة في سياق الصراع بين الإلهات الإناث والآلهة الذكور ، والذي هو انعكاس للانتقال من المجتمع الاموي للمجتمع الأبوي - ، كذلك كان ممكنا أن تستمر سيرة وارث فاطمة بنت بري، وان كان في شكل فرقة صغيرة لها ضريح في قرية واحدة، تؤمن بها بعض النساء وتخيف بها بعض الرجال، بينما تواصل بنت بري معركتها في الأسطورة – وان كان بشكل طفولي – بقذف من أساؤوا لها وهزموها من السماء بالحجارة.

هنا أعترف بان التشنيع الذكوري قد افلح لدرجة كبيرة في أبعاد الرجال – وكثير من النساء قطعا - عن بنت بري ومثالها ، حتى ما عدنا نعرف كيف كانت في حقيقة أمرها، وان كان هناك حنين غامض من النساء تجاهها. هذا الحنين المتجلي في إيمان نساء قرية زكريا بها، هو بعض من بقايا ذلك الوعي النسوي القديم والتعاطف الجندري التليد، المطمور تحت ركام قرون من الإخضاع العنيف والثقافة الذكورية الكاسحة.

مع ذلك فإن دوام الحال من المحال، وكما صمدت صورة ليليث عبر القرون باعتبارها مثالا للمرأة الأخرى، في أذهان البعض القليل، وخصوصا وسط النساء، فان صورة بنت بري قد صمدت عند القلة من النساء، وان كان بدون وعي كبير منهن غالبا. يقيني هنا أن كل تلك الصور لليليث وبنت بري وغيرها من الصور لنساء رائدات عبر التاريخ أو في الميثيولوجيا– ستساهم بالرمز في حركة خلق الوعي الانصافي الجديد، المتخلص من الذكورية، والمبني على وقائع العقل لا التهويمات الأسطورية، والخارج من نضالات ومساهمات كل من الرجال والنساء هذه المرة ، المتضامنين في حرية، المتشاركين في الإنسانية، والقابلين لان تقودهم / ن مثيلات بنت بري في عالم الغد، مثلما كن يقدن في بعض عالم الأمس.

3008-11-25

المراجع :

1. من كتاب الاستاذ عيسى عدوي عن قرية زكريا – الفصل الخامس – العادات والتقاليد – الفقرة عن الشيخة فاطمة – نشرت بمدونة عيسى عدوى http://issaadawi.maktoobblog.com/37055/الفصل_الخامس_-_العادات_والتقاليد

2. نقلا عن كتاب " آل البيت فى مصر" القسم عن الشيخ احمد البدوي - تأليف الأستاذ أحمد أبوكف.

3. نقلا عن مقال " الشيخ البد وي و بنت بِرّي" كتبه العضو عربي منشور بموقع رياض الصالحين: http://cb.rayaheen.net/showthread.php?tid=9998&first

نهلة بشير رمز الوطن الأسير[13]

(1)

اليوم 15 مارس 2009 ينقضي ربع عام على اعتقال نهلة بشير في سجون النظام . هي 90 يوما وهي 2160 ساعة وهي 129600 دقيقة وهي 7776000 ثانية من عمر الزمان . هي بمعاير من يظنوا الوقت من تراب لا شي، ولكنها حيوات ودهور بمقياس المعاناة لاهلها ولامها ولجيرانها واصدقائها ومحبيها . ومع أشراقة كل يوم جديد يتفتح أمل جديد في روح نهلة ، ومع اطلالة كل مساء تموت في نفسها لمحة من رجاء، ان هذا اليوم كان اليوم الآخير في هذه المأساة . تعرف نهلة اليوم وهي تخلد لليوم انها لم تخرج اليوم من الأسر، وانها ستنوم مرة اخرى في ثياب الصبر ، بينما نغط نحن في المنافي و في السجن الكبير.

(2)

نهلة بشير هي رمز صارخ لمأساة الوطن الأسير . هذا الوطن المصفد منذ حوالي عشرين عاما، مثلوم العينين مكبل اليدين ومقيد الرجلين هو صورة مكبرة لنهلة في امتداده الشاسع وقوته المؤودة وسجنه المهين . على وديانه وهضابه الاف الخدود من الجراحات وجداول الدم ، تماما مثلما الجراحات التي ارتسمت على وجه نهلة الجميل عندما ضربها عليه شذاذ الافاق . لا عجب ان يمزقوا جسد الوطن ويطعنوه في كل مكان: الجنوب، بورتسودان، العيلفون، كلمة ، كادوا ، كجبار، الطينة، اذا ما كانوا يعذبون نسائه وبناته ومصدر فخره وعطائه وتجدده. نهلة بشير هي مسيحنا الذي يعرض للصلب وهي جرحنا الذي ينزف في القلب وهي صورة شعبنا المذبوح ووطننا الجريح .

(3)

اعتقال نهلة بشير هو رمز اعتقال الوطن الكبير . فمن سرق وطنا بليل لم يتورع عن اعتقال نهلة بليل. من عذب شعبنا لم يتورع عن ان يعذب نهلة . من سرق حريتنا لم يأنف ان يسرق حريتها . من كذب علينا لم يستكثر ان يكذب عنها، من هجّر الملايين من ديارهم لعذابات الموت والمعسكرات والمنافي لم يتردد في ان ينزع نهلة من ديارها ومن وسط احبابها. من حكمنا بالحديد والنار وتقاعس الصغار لن يتورع عن ان يسجن نهلة بقوة الحديد والنار وتقاعس الصغار.

(4)

اعتقال نهلة عشوائي ومقصود،وكذلك اعتقال الوطن . عذابات نهلة مقصودة وعشوائية، وكذلك عذابات الوطن. ذلك انهم اعتقلوا نهلة فقط لانها كانت في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب، وهذا مظهر العشوائية، ولكنهم احتفظوا

[13] مقال تضامني إبان إعتقال الرفيقة نهلة بشير آدم في سجون النظام.

بها بعد ان اتضحت لهم حماقاتهم وهذا وجه القصد . في عشوائية فعلهم كانوا يريدون القول لنا ان لا احد معصوم من قهرهم ، شاء او لم يشاء، أذنب ام لم يذنب. وفي اصرارهم على الاثم وعلى الظلم اشارة ثانية ان لا مانع لهم من اخلاق او حس من عدالة يجعلهم يتراجعون عن ظلم، وانهم في عجزنا يفعلون ما يريدون.

(5)

عشوائية عذابات الوطن تكمن في ان هؤلاء الطفابيع لا يقصدون ارتكاب جريمة بعينها حينما يرتكبونها، و القصد يكمن في انهم يريدون ارتكاب الجرائم في حد ذاتها. في عرفهم لا يهم ان كان المقتول احمد ام حاج احمد، زيد ام عبيد، نهلة ام نخلة ، وانما المقصود هو فعل القتل في حد ذاته، وفعل الايذاء في عين نفسه. هم يريدون القول انه لا يهم الضحية، وانما يهم ان تكون هناك ضحية. لا يهم المعتقل في اسمه، وانما يهم ان يكون هناك معتقلا، لا تهمنا نهلة في حد ذاتها، وانما يهمنا اعتقال ما تعبر عنه نهلة وما تمثله نهلة.

(6)

سأل احدهم من قبل ما هو السبب الذي يجعل البشير يرتكب الابادة الجماعية في حق شعوب بعينها . أجبنا له ونجيب اليوم ان لا سبب الا نزعة الشر الكامنة فيه . هو لا يكره الفور والمساليت والزغاوة والدينكا والنوبة والبجا في اشخاصهم ولا حتي في قبائلهم . هو يكرهم في انسانيتهم نفسها، وفي بشريتهم ، وفي وجودهم. النظام ليس هو كبطل فاوست الذي يبغي الخير ولا يخرج منه الا الشر، ولكنه وحش يبغي الشر ولا يخرج منه الا الشر . نهلة هنا ليست الا رمزا، لو لم تكن هي لكانت غيرها عندهم . نهلة هنا ما هي الا رمز لضحيتهم الاولى والاساسية: الوطن المجروح والمسروق والمأسور.

(7)

العائشون في الاحلام والوالغون في الاوهام وصغار النفوس والعقول ومحبطي الهمة ومثبطي العزيمة ومخرومي الذمة والمهزومون دهرا والناطقون بعد صمت كفرا والجهلة والمتجاهلون والارزقية والامنجية والجبناء والبؤساء والذاهلون عن الواقع والمذهولون والغائبون والمغيبون والكذابون والمدلسون يريدون ان يخلقوا من الفسيخ شربات . يريدون ان يصوروا الذئب في ثوب الحمل، وان يجعلوا من الضحية مجرما ومن المجرم ضحية. يريدون ان يدافعوا عن المجرم وان يحاوروه وان يجعلوه جلدا لهم وان يكونوا جلده . يريدون لنا ان نصدقهم ونكذب انفسنا . ان نصدق الهتافات ونكذب الوقائع . ان نبيع الضمير خوفا من الاسر او من الفقر او من تقطيع الرؤوس والاوصال. ان نجعل من الفرعون ملاكا ومن المغتصب رمزا للبلاد . لهؤلاء اقول تباً لكم والى الجحيم كلكم، حينما سمحتم لعصبة السوء ان تأسر وطنا لعشرين عاما، وان تجعل من نهلة رهينة واسيرة في وطن اسير .

(8)

نهلة تشبه وطننا في جمالها وفي بهائها وفي ضعفها وفي قدراتها الكامنة. سمراء هي بلون التراب وعفراء هي بلون الهموم. مديدة القامة رغم قصر الزمان دائمة الابتسامة رغم ان الدموع في كل مكان. مريضة هي وفي جسدها النحيل تسرى امراض الوطن الكبير. مريض قلبها ويخفق سريعا لانه يكاد يسابق الزمن ولأنه مهموم خافق بحب الوطن. قلبها مثل قلب الوطن مجروح حيث يطعنه الجلاد بسكينه كل يوم. بطنها تؤلمها وكيف لا وبطن الوطن التي يجب ان تخرج ثمرا وزهرا وشجرا ، وتتفجر ماء ونماء وتخرج حبا وعنبا وأبا اصبحت مقابر جماعية وشلالات دم لا تتوقف في مكان الا لتتفجر في مكان آخر. جسد نهلة الشاب وهي بنت الخمسة وعشرين يحمل امراض جنوب كردفان وامراض السودان. مع ذلك فهي تحيا وتعيش وتناضل كما البلاد الجريحة، ويخفق قلبها وتقاوم المرض لأن الحياة هي ابقى ولان جذوتها هي الابهى . نهلة بشير في ضعفها وفي قوتها تحاكي السودان، ذلك أنها بنت من بنات السودان وبطلة – رغم القهر – من هذا الزمان.

(9)

خرجت نهلة من بيئة حاصرها الفقر والتهميش الاحباط ولم يقدم لها الوطن شيئا، فقدمت هي للوطن كل شي. تعلمت لانها عرفت ان التعليم هو الطريق الوحيد للتغيير. رجعت الى اهلها والى بلدها بعد تخرجها لانها تؤمن ان النهر يجب ان يرجع للمصب. عندما لم تجد عملا لان الدولة قد نست منطقتها وقتلت الشباب بدلا من ان تفتح له الافاق ودعت الباقي منه للحرب على لسان رئيسها، لم تستسلم للكسل او اليأس او الاحباط وانما اسست عملا مدنيا لتدعم الاضعف والاكثر احتياجا، فكانت "جمعية شباب للاطفال" . بدلا من تكريمها كان اعتقالها، لأن القصد هو اعتقال الوطن. بدلا من مساعدتها للتحليق كان قص اجنحتها ، حتى لا يرتفع طير من بعدها ولا يفكر في الطيران. بدلا ان تشرع امامها الابواب اغلقت في سجن واوصدت من خلفها الأبواب. هذا هو مصير نهلة بشير اليوم، وهذا هو واقع الوطن الأسير.

(10)

ليست نهلة بشير عضوة في الحركة الشعبية كما قيل، والحركة لا تستطيع ان تحررها، كما لم تستطيع تحرير السودان. لم يفعل زملائها شيئا كثيرا لها حينما استصرخهم ياسر بيناوي، ولم يقدروا على تحريرها وكانوا في مسعاهم تجاهها ضعفاء رغم النيات الطيبة. ذلك ان قاماتهم كانت اقصر قامة من نهلة، واقصر قامة من الواقع. لم نستطع تحرير الوطن الاسير فكيف نحرر نهلة ؟؟ لم نهز الارض والدم يسيل في البيوت والوديان فكيف نقلبها بسبب من عذابات نهلة ؟؟ لم نمسح جراح الاطفال والنساء ولم نوقف القتل ولم نوقف الدجل ولم نهزم الفرعون فكيف ننجد نهلة ؟؟ كنا اقوياء في القول ضعيفين في الفعل. كنا خائري الارادة مهزومين نفسيا . بعنا نفسنا للاصنام فكان ان باعتنا الاصنام في سوق اللئام. ضيعنا عقلنا وضهبنا روحنا وبعنا بوصلتنا فضاعت منا البلاد وتاه معنا العباد. انهزمنا امام الطفابيع ولا نزال ننهزم كل يوم، ذلك لاننا لا

نتعلم ولا ننسى ولا نغفر. ولدنا احرارا فاستعبدنا انفسنا للرجال. اتيحت لنا الفرصة تلو الاخرى فتراجعنا في كل مرة من دون حرب ولا نزال.

(11)

لنهلة ان خذلها المثقفون والحزبيون وموظفي حقوق الانسان ما للوطن : جراحات وآلام وأمل متجدد رغم السقوط المتعدد الوجوه . لا اؤمن انا في الجيل القديم ولا اؤمن في الكثير من ابناء جيلي، ولكني اؤمن بنهلة وبجيل نهلة. ذلك ان شعلة الحق لا تنطفيء ابدا، وهي تخرج من اقل الاماكن توقعا . لنهلة وللوطن الاطفال ممن ساعدتهم نهلة في عملها البطولي الذي تدفع ثمنه الان من اجلهم . لنهلة اشجار الحراز ودموع النساء في المعسكرات وبكاء الريح وهي تطوف على الوطن المقبرة . لنهلة شبابها الغض رغم الآلام. لنهلة شمعة قلبها الكبير رغم الظلام. لنهلة صحاري السودان الشاسعة وجباله المانعة واشجاره التي تقاوم المحل ولؤم الانسان والطبيعة. لنهلة كل الثواني القادمة وكل الاحلام الهائمة وكل الرؤي الغائمة. لنهلة الماضي التليد والحاضر العنيد والمستقبل السعيد. لنهلة الوطن، وللوطن نهلة، يوم تخرج من الاسر، ويوم يبدأ الخروج معها – حينئذ - الوطن الاسير، الى النصر..

15 مارس 2009